الإمام عليّ (عليه السلام)

في قوّته الجاذبة والدافعة

تأليف

العلاّمة الشيخ مرتضى مطهري

ترجمة جعفر صادق الخليلي

تقديم

إن شخصية الإمام عليّ(عليه السلام) العظيمة الرحبة لأوسع وأشمل من أن يستطيع فرد بمفرده أن يجول فيها بفكره ليحيط بها من جميع الجوانب والأطراف. إن أقصى ما يستطيعه المرء هو أن يقنع بتناول جانب واحد أو عدد محدود من جوانب شخصيته بالمطالعة والدرس.

ومن جوانب هذه الشخصية العظيمة ذلك الجانب الّذي يكشف عن تأثيره في الناس تأثيراً موجباً أو سالباً.

وبعبارة أُخرى هو ما في الإمام من قوة «الجذب والدفع» الكبيرة الّتي ما زالت تعمل عملها حتّى الآن، وهي ما سوف يتناوله هذا الكتاب بالبحث.

من البديهي أن يتباين الناس من حيث ما يثيرونه من ردود الفعل عند الآخرين. وكلما كانت الشخصية أضعف كان انشغال الآخرين بها أقل وما تثيره في القلوب من التهيج والإثارة أدنى. وكلما كانت الشخصية أعظم وأقوى كانت أقدر على استثارة المشاعر وإبراز ردود الفعل، سواء كانت مؤيدة أم مخالفة.

إن الشخصيات الّتي تثير الخواطر وتستدعي ردود الفعل تلهج بذكرها الألسنة كثيراً، وتكون موضع جدل

ونقاش وخصام، وتتخذ أغراضاً للشعر والرسم والفنون الأخرى، وأبطالا للروايات والقصص. هذه أمور نجدها كلها قد تحققت في حدودها العليا بشأن عليّ(عليه السلام (ولم ينافسه في ذلك أحد، أو نافسه أفراد معدودون.

يقال إن محمد بن شهرآشوب المازندراني ـ الّذي كان من أكابر علماء الإمامية في القرن السابع ـ عندما أقدم على تأليف كتابه المعروف «المناقب» كان في مكتبته ألف كتاب باسم «المناقب» كتبت كلها في عليّ(عليه السلام.(

هذا نموذج واحد يدل على مدى انشغال الخواطر بهذه الشخصية العظيمة السامية على امتداد التاريخ.

إن الميزة الرئيسة الّتي يمتاز بها عليّ(عليه السلام) وسائر الّذين أضاءوا بنور الحقّ، هي أ نّهم ـ فضلا عن أشغالهم الخواطر والأفكار ـ كانوا يفيضون على القلوب والأرواح النور والحرارة والحب والنشاط والإيمان والثبات.

إن فلاسفة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وابن سينا وديكارت ما زالوا يستحوذون على أفكار الناس وخواطرهم.

وإن قادة الثورات الاجتماعية ـ وعلى الأخص في هذا القرن ـ أثاروا في مؤيديهم ضرباً من التعصب.

ورجال التصوف استطاعوا أن يحملوا أتباعهم على الرضوخ لحالة «التسليم» بحيث لو أن «صاحب الحانة أومأ لهم لصبغوا السجادة بالخمر»(١.(

إلاّ أننا لا نرى في أي من أولئك تلك الحرارة المصحوبة بالليونة واللطافة والصفاء والرقة الّتي يدور فيها الكلام على عليّ(عليه السلام) في التاريخ. فالصفويون الّذين أنشأوا من الدراويش جيشاً جراراً من المجاهدين، إنّما أنشأوه باسم عليّ لا بأسمائهم.

إن الحسن والجمال المعنويين اللذين يخلقان المحبة والخلوص ينشآن من مقولة واحدة... بينماالسلطة والمنفعة والمصلحة الحياتية الّتي هي بضاعة القادة الاجتماعيين، أو التعقل والتفلسف اللذين هما بضاعة الفلاسفة، أو إثبات السلطة والاقتدار الّذي هو بضاعة المتصوفة... من مقولة أخرى.

لقد جاء أن أحد تلامذة ابن سينا كان يقول له: لو أ نّك بهذا الذكاء والفهم الخارق للعادة ادعيت النبوة لالتف حولك الناس. إلاّ أن ابن سينا لم يكن يرد عليه بشيء. حتّى جمعتهما سفرة في أيام شتاء. وعند الفجر من احدى الليالي أيقظ ابن سينا تلميذه وطلب منه أن يأتيه بقليل من الماء لإرواء عطشه. فراح التلميذ يتعلل

وينحت الأعذار لكيلا يغادر فراشه الدافىء في تلك الليلة الباردة على الرغم من كثرة إلحاح أستاذه عليه. وفي تلك اللحظة ارتفع صوت المؤذن من المئذنة)الله أكبر. أشهد أن لا إله إلاّ الله. أشهد أن محمّداً رسول الله (فاغتنم ابن سينا الفرصة وقال لتلميذه: ألم نكن تحرضني على ادعاء النبوة وتقول: إن الناس سوف يؤمنون بي ويتبعونني؟ ولكنك ـ وأنت تلميذي منذ سنوات، وقد استفدت من دروسي ـ لم يكن لي عليك ذلك النفوذ الّذي يخرجك من فراشك دقائق معدودة لتأتيني بالماء. ولكن هذا المؤذن يصدع بأمر نبيه بعد أربعمائة سنة فينهض من نومه الهنيء وفراشه الدافىء ليصعد المئذنة ليشهد بوحدانية الله وبرسالة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، فانظر ما أبعد الاختلاف!

نعم... إن الفلاسفة يصنعون التلاميذ لا الأتباع، والقادة الاجتماعيون يصنعون الأتباع المتعصبين، لا الناس المهذبين، وأقطاب التصوف ومشايخ العرفان يصنعون المستسلمين، لا المؤمنين المجاهدين النشطين.

ولكن في عليّ(عليه السلام) اجتمع فعل الفيلسوف، وفعل القائد الثوري، وفعل شيخ الطريقة، وفعل يشبه فعل الأنبياء ...مدرسته مدرسة العقل والفكر، ومدرسة الثورة، ومدرسة التسليم والانضباط، ومدرسة الحسن والجمال والانجذاب والحركة.

إن عليّاً(عليه السلام) قبل أن يكون إماماً عادلا للناس ويحكم بينهم بالعدل، كان إنساناً متعادلا متوازناً في ذاته، يجمع فيها الكمالات الإنسانية كلها.. كان إلى جانب عمق تفكيره وبعد نظره يتمتع بمشاعر عاطفية رقيقة. جمع كمال الجسم إلى كمال النفس .كان في الليل ينقطع عن كلّ أمر للتعبد، وفي النهار ينشط في كلّ عمل اجتماعي. كانت عيون الناس ترى منه في النهار التضحية والمواساة، وتسمع منه آذانهم النصيحة والموعظة والحكمة. وفي الليل كانت عيون الأنجم ترى دموع تعبده، وتسمع آذان السماء مناجاته الوالهة. كان المفتي والحكيم، وكان الصوفي والقائد الاجتماعي، وكان الزاهد والجندي، وكان القاضي والعامل، وكان الخطيب والكاتب ـ لقد كان الإنسان الكامل بكلّ ما فيه من حسن وجمال.

هذا الكتاب يتألف من أربع محاضرات ألقيت في)حسينية إرشاد) من ١٨ حتّى ٢١ من شهر رمضان المبارك في سنة ١٣٨٨ هـ .وقد أقيم الكتاب على مقدمة وفصلين:

في المقدمة جرى بحث كلي بشأن الجذب والدفع عموماً، أو بشأن جذب الإنسان ودفعه خصوصاً.

وفي الفصل الأوّل يجري الكلام على قوة جاذبية عليّ(عليه السلام) الّتي جذبت ـ ولم تزل تجذب ـ القلوب اليه، وفلسفة ذلك، وفائدته وأثره.

وفي الفصل الثاني نتناول قوة دفع الإمام(عليه السلام) وكيف كان يطرد بها بعض العناصر بكلّ مشقة. فقد ثبت أن عليّاً(عليه السلام) كان ذا قدرتين، وأن على من يرغب أن يتربى في مدرسته أن يكون ذا قدرتين أيضاً.

ولما لم يكن يكفي أن يكون المرء مزدوج القدرة فحسب لكي ينتمي إلى مدرسة الإمام عليّ(عليه السلام)، فقد سعينا جهدنا في هذا الكتاب أن نبين من أي طراز هم أولئك الّذين تجذبهم قوة جاذبية الإمام، وأي نوع من الناس تطردهم قوة دفعه. وما أكثر الّذين يدّعون أ نّهم من أتباع مدرسته ولكنهم يعملون على دفع الّذين كان عليّ(عليه السلام) يجذبهم، وجذب الّذين كان يدفعهم.

عند الكلام على قوة دفع عليّ(عليه السلام (اكتفينا ببحث ظاهرة الخوارج، على الرغم من وجود طبقات أخرى تشملهم قوة دفع عليّ(عليه السلام)، ولعلنا نوفق إلى معالجة هذا التقصير مثل غيره مما في هذا الكتاب، في وقت آخر، أو في الأخرى لهذا الكتاب.

لقد تحمل متاعب اصلاح هذه المحاضرات وإكمالها الأخ الفاضل حضرة السيد فتح الله الأميدي، فنصف الكتاب بقلمه، فبعد أن نقله من أشرطة التسجيل على الورق، عاد فكتبه بقلمه أو أصلحه وأكمله .أمّا النصف الآخر فقد أمليته بنفسي، أو قمت بإضافة بعض الأمور بعد أن قام الأخ الفاضل بإعداده وإصلاحه. وإنّي لأرجو أن يكون للكتاب بمجموعه أثر تعليمي نافع، سائلاً الله تعالى أن يجعلنا من أتباع عليّ(عليه السلام) الحقيقيين.

مرتضى مطهري

(1)هذا تضمين لأحد أبيات الشاعر حافظ الشيرازي ـ المترجم.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ـ (وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض يَأمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(١.(

ـ (المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْض يَأمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ)(٢(

المقدمة

قانون الجذب والدفع

قانون الجذب والدفع قانون عام يسود سائر أجزاء نظام الخلق. فالعلوم المعاصرة ترى أن كلّ ذرة من ذرات عالم الوجود تقع ضمن دائرة حكم الجاذبية العامة ولا تخرج عنه ذرة واحدة. فالأجسام ـ أكبرها وأصغرها ـ تملك هذه الطاقة الغامضة الّتي تسمى الجاذبية ـ أو قوة الجذب ـ وتقع تحت تأثيرها أيضاً.

لم يكتشف الإنسان في عهوده السابقة قانون الجاذبية العام في العالم، ولكنه عرف بوجود هذه الحالة في بعض الأجسام .وكان يرى في بعضها نماذج لذلك، مثل المغناطيس والكهرباء. ومع ذلك فهو لم يعرف مدى تأثير جذبها على جميع الأجسام، بل أدرك علاقة الجذب الّتي تربط ـ مثلا ـ بين المغناطيس والحديد، أو بين الكهرباء والقش.

فإذا تغاضينا عن كلّ ذلك، نجد أ نّهم لم يقولوا بوجود هذه الطاقة في سائر الأشياء، سوى الأرض الّتي فسروا وقوفها في الفضاء بكونها هدفاً للجذب من جميع الجهات بدرجة متساوية، ولذلك فهي معلقة في الفضاء من غير أن تميل إلى جهة من الجهات. وكان بعضهم يعتقدون أن السماء لا تجذب الأرض بل تدفعها، ولكون قوة الدفع تصل إلى الأرض من جميع الجهات بمقادير متساوية، فإنّها تظل ساكنة في نقطة معينة ولا تغير مكانها. الجميع يقولون ـ أيضاً بوجود قوة الجذب والدفع في النباتات والحيوانات، وذلك يعني عندهم أ نّها تملك القوى الأصلية الثلاث: قوة التغذية، وقوة النمو، وقوة التوالد. وكانوا يقولون بأن لقوة التغذية فروعاً أخرى، مثل القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة والماسكة. وأن في المعدة قوة جاذبة تجذب الغذاء نحوها، وإذا لم تجد الغذاء مناسباً دفعته بعيداً. وأن في الكبد قوة جاذبة تجذب إليه الماء(٣).

الجذب والدفع في عالم الإنسان

ليس المقصود من الجذب والدفع هنا ذلك الجذب والدفع الجنسي، وإن يكن هذا ـ أيضاً ـ ضرب من الجذب والدفع الّذي يعتبر موضوعاً قائماً بذاته، إنّما المقصود هو ذاك الجذب والدفع اللذان يقعان بين الناس في الحياة الاجتماعية. ولا نعني بذلك التعاون القائم بين الناس على تبادل المنافع، فهذا ـ أيضاً ـ ليس موضوع

بحثنا.

إن جانباً كبيراً من الصداقة والمحبة، أو من العداء والكره، يعتبر من مظاهر جذب الإنسان ودفعه. وهو قائم على أساس من التماثل والتشابه، أو على أساس من التضاد والتنافر. وفي الواقع ينبغي البحث عن أسباب الجذب والدفع في السنخية والتنافر، مثلما يقال في الفلسفة: إن التماثل علة الانضمام.

قد تلاحظ شخصين ينجذب أحدهما للآخر، ويحبان أن يبقيا معاً صديقين. إن لهذا دلالته، وهي ليس إلاّ التماثل، إذ لولا وجود التشابه بينهما لما انجذب أحدهما إلى الآخر ولما رغبا في أن يكونا رفيقين. وعليه، فإن التقارب بينهما دليل على أن هناك ضرب من التشابه والتماثل بينهما.

في الكتاب الثاني من المثنوي حكاية طريفة:

رأى حكيم غراباً ولقلقاً قد عقدا بينهما عهد صداقة، فيحطان معاً ويطيران معاً! هذان الطائران، من نوعين مختلفين، فالغراب... لا لونه ولا شكله يشابهان اللقلق، فأخذه العجب، لماذا الغراب واللقلق؟! فاقترب منهما فرأى أ نّهم أعرجان.

إن اشتراك هذين النوعين المختلفين من الطيور في هذه العاهة هو الّذي جعل أحدهما يأنس بالآخر. كذلك الإنسان لا يألف إنساناً آخر بغير علة، ولا هو يعاديه بغير علة أيضاً.

يرى بعضهم أن أصل هذا الجذب والدفع هو الحاجة ورفع الحاجة. الإنسان كائن محتاج، فقد خلق محتاجاً، فيسعى بمحاولاته لكي يملأ فراغاته ويسد حاجاته. إلاّ أن هذا غير ممكن ما لم ينضم إلى جماعة ويبتعد عن جماعة، فينتفع بهذا الانضمام من جماعة، ويدرأ عن نفسه ضرر جماعة أخرى، فلست ترى فيه نزوعاً ولا عزوفاً إلاّ وهو نابع من مصلحته.

وعليه فإن الضرورات الحياتية ـ وبناءه الفطري ـ قد أوجدت فيه قوتي الجذب والدفع لكي يلتئم مع ما يحس فيه بالمنفعة، ويبتعد عما لا يجد في نفسه ميلا إليه... وأن يظل عديم الإحساس إزاء ما هو ليس من ذلك، فلا هو بنافع ولا هو بضار.

في الحقيقة، إن الجذب والدفع من الأركان الأساسية في حياة الإنسان، وبقدر اصابتهما بالضعف يصاب نظام حياته بالخلل، ومن كانت له القدرة على ملء الفراغات استطاع أن يجذب الآخرين نحوه. أمّا الّذي هو فضلا عن كونه لا يستطيع ملء الفراغات، بل يزيد من عددها، فإنّه يدفع الناس ويبعدهم عنه. وكذلك اللاأباليون.

اختلاف الناس في الجذب والدفع

إن الأفراد ليسوا متساوين من حيث قواهم الجاذبة والدافعة بالنسبة للآخرين، ويمكن تصنيفهم إلى عدة أصناف:

1- صنف لا جذب فيهم ولا دفع. لا يحبهم أحد ولا يبغضهم أحد، فلا هم يستثيرون حب أحد وميله اليهم ولا عداوته أو حسده وحقده ونفوره. يمشون بين الناس لا يبالون بشيء، فهم أشبه بقطعة حجر تتحرك بين الناس.

وهذا كائن مهمل ولا أثر له. إن امرءاً ليس فيه أي تأثير إيجابي (ليس المقصود بالايجابي الفضيلة وحدها، بل الرذيلة مقصودة أيضاً) ليس سوى حيوان يأكل وينام ويتحرك بين الناس. إنّه كالشاة الّتي لا تحب أحداً ولا تعادي أحداً، فإذا ما عني بها من حيث تقديم العلف والماء كان ذلك لكي يستفاد من لحمها. إنّه لا يثير موجة تأييد ولا موجة معارضة... هذا وأمثاله صنف يمثل كائنات لا قيمة لها، قشوراً فارغة، فالإنسان يريد أن يحب ويريد أن يكون محبوباً... بل قد يريد أن يعادي وأن يعادى أيضاً.

2- وهناك من يملك قوة الجذب ولكنه يفتقر إلى قوة الدفع. إنّه يأتلف مع الجميع ويحتضنهم جميعاً ويحمل الناس من مختلف الطبقات على التعلق به. إنّه محبوب الجميع في المجتمع ولا يستنكره أحد .وإن مات غسله المسلمون بماء زمزم إن كان مسلماً، وأحرق جسده الهندوس إن كان هندوسياً. يقول الشاعر الفارسي ما ترجمته:

)كن حسن الخلق ـ يا عرفي ـ مع الصالح والطالح، فعند موتك يغسلك المسلمون بماء زمزم ويحرق الهندوس جسدك)(٤ .)

فهذا الشاعر يرى أنك إن عشت في مجتمع نصفه من المسلمين الّذين يغسلون موتاهم، وإن احترموهم فيغسلوهم بماء زمزم، ونصفه الآخر من الهندوس الّذين يحرقون موتاهم ويذرون رماد أجسادهم في الريح، فعليك أن تتخلق بأخلاق يراك فيها المسلمون واحداً منهم فيهرعون لغسلك بماء زمزم عند موتك، ويراك فيها الهندوس واحداً منهم فيسعون لحرق جسدك بعد موتك احتراماً لك.

يرى الناس ـ في الأعم الأغلب ـ أن حسن الخلق وطيب المعاشرة، أو بحسب التعبير المعاصر «أن يكون المرء اجتماعياً» هو أن يفوز المرء بحب الجميع.

إلاّ أن هذا غير ممكن للشخص الّذي يعمل من أجل هدف معين ويسير في المجتمع بحسب سلوك معين، ووفق

فكرة خاصة، ويتطلع إلى مثال بعينه، وليس همه السعي وراء منفعته الذاتية. إن انساناً هذا شأنه لابدّ أن يكون ذا وجه واحد حاسماً وصريحاً، شاء ذلك أم أبى، ما لم يكن منافقاً مزدوج الشخصية.

وذلك لأن الناس لا يفكرون بطريقة واحدة، ولا يتشابهون في مشاعرهم، ولا في رغباتهم وأهوائهم.. إن فيهم العادل، وفيهم الظالم. فيهم الصالح، وفيهم الطالح، كما أن في المجتمع المنصف، والمعتدي، والعادل، والفاسق. فليس من الممكن أن يجتمع هؤلاء على حب شخص بعينه، وهو يسعى للوصول إلى هدف لا يستهوي الجميع فيصطدم ـ حتماً ـ مع مصالح بعض دون بعض.

إن الشخص الوحيد القادر على جذب حب الناس جميعاً ـ على اختلاف طبقاتهم ومثلهم واتجاهاتهم ـ هو المرائي الكذّاب الّذي يظهر لكلّ شخص ما يحب أن يسمع ويرى.

أمّا إذا كان المرء ذا وجه واحد وسلوك واحد، فلا شك في أن جمعاً من الناس سيكونون من أصدقائه، بينما سوف يعاديه جمع آخر. فالذين يتجهون وجهته سينجذبون إليه، والّذين يختلفون معه في وجهة نظره سوف يطردونه ويحاربونه.

بعض المسيحيين الّذين يقولون عن أنفسهم وعن دينهم: إنّهم يبشرون بالمحبة، يزعمون أن الإنسان الكامل لا يملك سوى المحبة، ولا شيء غيرها.أي إن فيهم قوة الجذب فقط.ولعل بعض الهندوس يدعي الشيء نفسه.

إن ما يلفت النظر كثيراً في الفلسفات المسيحية والهندية هو المحبة. إنهم يقولون: إن على المرء أن يميل إلى كلّ شيء وأن يظهر حبه له. فإذا نحن أحببنا الجميع لا يكون هناك ما يمنع من أن يحبنا الجميع، بما فيهم الأشرار الّذين لم يروا منا غير الحب.

إلاّ أنّ على هؤلاء أن يدركوا أن مجرد كون المرء من أهل المحبة لا يكفي، إذ عليه أن يكون ذا مسلك أيضاً. وقول غاندي »هذا هو مذهبي» يعني أن المحبة يجب أن تصاحب الحقيقة، فإذا صاحبت الحقيقة، لابدّ أن تكون وفق سلوك معين، وكونك ذا سلوك معين سوف يخلق لك الأعداء شئت أم أبيت، وهذا في الواقع هو قوة الدفع الّتي تحمل عدداً من الناس على الاعتراض والمعارضة وتطرد عدداً آخر.

الإسلام ـ أيضاً ـ قانون المحبة، وهذا القرآن يقدم النبيّ الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم)على أ نّه رحمة للعالمين:

)وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)(٥.(

أي إنّك رحمة حتّى على أعدى أعدائك(٦.(

بيد أن الحب الّذي يقول به القرآن لا يعني أن نعامل كلّ شخص على وفق هواه ورغبته، فلا نفعل إلاّ ما يجوز رضاه ويجذبه حتماً نحونا. ليست المحبة أن نترك كلّ امرىء حراً فيما يشاء ويهوى ونؤيده في ذلك. ليس هذا من المحبة في شيء، بل هو النفاق والازدواجية.

المحبة تصاحب الحقّ وتوصل الخير، بل قد يكون ايصال الخير بطريقة لا تستجلب رضا الطرف الآخر ومحبته. ما أكثر الّذين يوصل الإنسان لهم الخير عن هذا الطريق، إلاّ أ نّهم إذ يرونه يخالف رغباتهم يعادونه بدل أن يحبوه.

ثم إنّ المحبة المنطقية والعقلائية هي الّتي يكون فيها خير المجتمع وصلاحه، لا خير فرد واحد، أو طبقة بعينها. فكثير من المحبة الّتي تولى للأفراد والخير الّذي يوصل إليهم يكون سبباً في ايصال الشر والضر إلى المجتمع.

في التاريخ مصلحون عظام سعوا إلى اصلاح شؤون المجتمع وتحملوا في سبيل ذلك أنواع العذاب، ولكنهم لقاء ذلك لم يجدوا من الناس سوى الإيذاء والحقد.

وعليه فالمحبة لا تعني الجذب دائماً، فقد تظهر المحبة أحياناً بصورة قوة دافعة عظيمة تثير الجماعات ضد الإنسان.

كان عبدالرحمن بن ملجم المرادي من أعدى أعداء عليّ(عليه السلام) وكان عليّ على علم تام بما يحمله له هذا الإنسان من عداء وخطر، وكان بعض أصحاب عليّ(عليه السلام) يقولون له أيضاً: إنه إنسان خطر، فتخلص منه. إلاّ أن علياً كان يقول: أقصاص قبل الجناية؟ إذا كان هذا قاتلي، فإنّي لا أستطيع أن أقتله. إنّه هو قاتلي ولست أنا قاتله. ولقد قال عنه يوماً: «أريد حياته ويريد قتلي»(٧) فأنا أتمنى أن يبقى حياً، وأحب أن يكون سعيداً، ولكنه يريد قتلي... إنّني أكن له المحبة والود، وهو يكن لي العداوة والحقد.

ثم إنّ المحبة وحدها لا تكون دواء لعلاج البشر، ففي بعض الألسنة والأمزجة لابدّ من شيء من الخشونة والمحاربة والدفع والطرد. الإسلام دين جذب ومحبة، كما هو دين دفع ونقمة(٨)؟

3- وهناك من يملك القوّة الدافعة دون القوّة الجاذبة إنّه يصنع الأعداء ولا يصنع الأصدقاء. هؤلاء أُناس ناقصون أيضاً. وهذا دليل على أ نّه يفتقر إلى الخصال الإنسانية الإيجابية. إذ لو كان متمتعاً بجميع الخصال الإنسانية، لوجدنا له ولو عدداً ضئيلا من المحبين والأصدقاء، فالمجتمع لا يخلو من الناس الطيبين، وإن قل عددهم .ولو كان جميع الناس فاسدين ظالمين لكانت هذه العداوات دليل الحقّ والعدالة. ولكن الناس ليسوا

كلهم رديئين دائماً وليسوا كلهم طيبين دائماً. لذلك لا شك في أن الشخص الّذي يجد الناس أعداءً له، إنّما يكون هو السبب في ذلك، إذ كيف يمكن أن توجد في إنسان خصال طيبة، ثمّ لا نجد له صديقاً ولا محباً واحداً؟ إنّ أمثال هؤلاء تخلو شخصياتهم من الخصال الإيجابية، فهم حتّى في خصالهم السيئة لا يستسيغهم أحد. إنّهم كالمرارة في الأفواه، لا يخالطها شيء من الحلاوة أبداً.

يقول الإمام عليّ(عليه السلام:(

»أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»(٩.(

4- وهناك الّذين وهبوا القوتين الجاذبة والدافعة. أناس لهم مسيرة خاصة، وهم نشطون في اتباع عقيدتهم ومسلكهم، فيجذبون جماعات نحوهم، ويدخلون القلوب محبوبين، كما يدفعون عنهم جماعات أُخرى ويطردونهم. إنّهم يصنعون الأصدقاء ويصنعون الأعداء. يربون المؤيدين ويربون المعاندين.

ترى كيف هم هؤلاء؟ إن قوتي الجذب والدفع قد تكونان شديدتين، وقد تكونان ضعيفتين، وقد تكونان متباينتين.

إنّ الّذين لهم شخصيات قوية هم الّذين قويت فيهم قوتا الجذب والدفع، وهذا يعتمد على مدى قوة الأُسس الموجبة والسالبة في أرواحهم. لا شك في أن للقوة درجات ومراتب بحيث أ نّها قد تصل أحياناً بالمحبين المجذوبين إلى أن يضحوا بأنفسهم في سبيل من اجتذبهم إليه، كما قد يصل الأمر بالأعداء المبغضين إلى حيث يضحون بدمائهم على مذبح عدائهم. وقد تشتد تلك القوّة بحيث أ نّها تمتد حتّى إلى ما بعد موت صاحبها، فيبقى أثر جذبه ودفعه قروناً عديدة فاعلا في النفوس ويشمل ساحة واسعة جداً. إن هذا الجذب والدفع ذا الأبعاد الثلاثة يختص به الأولياء، مثلما أن الرسالات ذوات الأبعاد الثلاثة يختص بها الأنبياء(١٠.(

ثم ينبغي علينا أن نتعرف على الّذين يجذبونهم وعلى الّذين يدفعونهم، فمثلا، قد نراهم أحياناً يجذبون ذوي العقول ويطردون الجهلاء، وقد يكون الأمر معكوساً. وقد يجذبون العناصر الشريفة النجيبة ويدفعون العناصر الدنيئة الخبيثة، وقد يكون العكس. ولذلك فإنّ محبي كلّ امرىء ومبغضيه يعتبرون دليلا قاطعاً على ماهية ذلك الشخص.

إنّ مجرد امتلاك المرء لقوتي الجذب والدفع، حتّى وإن كانتا شديدتين، لا يكفي لاعتباره جديراً بالمدح والثناء، وإنّما تتحقق الجدارة بأصل شخصيته. وشخصية المرء لا تكون دليلا على طيب طينته .إنّ جميع قادة الدنيا وزعمائها، حتّى المجرمين المحترفين منهم، مثل جنكيزخان والحجاج ومعاوية، كانوا أشخاصاً من ذوي

القوى الجاذبة والدافعة. فلولا وجود نقاط ايجابية في نفس شخص ما لا يمكنه أن يجعل الآلاف من الجنود طوع أمره وإرادته. ولولا وجود روح قيادية في المرء لما كان بإمكانه أن يجمع جموع الناس من حوله. كان نادر شاه من هؤلاء.. ما أكثر الرؤوس الّتي أطاح بها والعيون الّتي سحلها! إلاّ أن شخصيته كانت قوية جداً. فقد أخرج ايران المندحرة في أواخر العهد الصفوي من حالتها المتدهورة باجتذابه الجيوش الجرارة حول قيادته ـ كما يجذب المغناطيس برادة الحديد ـ وتكوين جيش لجب لم يحرر البلاد من نير الدخلاء فحسب، بل طاردهم حتّى أقصى نقاط الهند، مضيفاً أراضي جديدة إلى الأرض الايرانية.

وعليه فإن كلّ شخصية تجتذب إليها مثيلاتها، وتطرد عنها من لا يماثلها. فالشخصية العادلة المحبة للخير، تجتذب شخصيات عادلة محبة للخير مثلها، وتطرد عباد الهوى والمال والمنافقين .والشخصية المجرمة تجذب المجرمين حولها وتبعد الصلحاء عنها.

والاختلاف الآخر ـ كما قلنا ـ هو التباين في درجة قوة الجذب، فمثلما هم يقولون عن قانون جاذبية نيوتن: إنّها تتناسب طردياً مع كتلة الجسم وقصر المسافة مع الأرض، كذلك.. الأمر مختلف في الأشخاص من حيث قوة جذبهم للآخرين.

عليّ ـ شخصية ذات قوتين

عليّ(عليه السلام) من الرجال الّذين يمتلكون القوتين الجاذبة والدافعة، وكلتا القوتين أشد ما تكونان فيه. ولعلنا لا نعثر على مدى القرون والعصور من بلغت فيه هاتان القوتان شدتهما في عليّ(عليه السلام). فأتباعه من أعجب الأتباع: تاريخيون، مضحون، صابرون، يلتهبون حباً به كبيدر مشتعل، ويشعون ضياء، يرون التضحية بأرواحهم في سبيله أمنية وفخراً، ينسون كلّ شيء في غمرة حبهم له. لقد مضت على موت عليّ(عليه السلام) قرون، وما زالت جاذبيته تشع وتتلألأ، فتنجذب إليها العيون حيرى والهة.

في حياته تمحورت حوله عناصر شريفة، ونجيبة، تعبد الله، مضحية، لا يداخلها الطمع، أُناس صابرون، رحماء، عادلون، يخدمون الناس، لكلّ واحد منهم تاريخ وعبرة.

وبعد موته، في خلافة معاوية والأمويين، عذبت جماعات كثيرة بتهمة الولاء له أشد تعذيب، ولكنها لم تنكص بسبب ذلك خطوة واحدة على أعقابها عن حبه، بل صمدت حتّى الموت.

سائر شخصيات العالم يموت كلّ شيء عنهم بموتهم ويختفي مع أجسادهم تحت التراب. غير أن رجال الحقيقة يموتون وتبقى مدارس أفكارهم ويظل الحب الّذي أشعلوا فتيلة سراجه على مر الدهور يزداد تلألؤاً وإشراقاً.

إننا نقرأ في التاريخ أ نّه بعد مضي قرون على وفاة عليّ(عليه السلام) ما يزال هناك أشخاص يستقبلون سهام أعدائه بصدورهم.

نقرأ، فيما نقرأ عن عشاق عليّ والمنجذبين اليه، عن ميثم التمار، الّذي راح يتحدث عن فضائله وسجاياه الإنسانية، وهو على أعواد المشنقة. ففي ذلك العهد الّذي غرقت فيه البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أدناها في بحر من الكبت والتضييق، حيث أُهدرت الحريات وخنقت الأنفاس في الصدور، وران صمت كصمت القبور على الملامح والوجوه، أخذ هو)ميثم) من أعلى المشنقة ينادي بأعلى صوته: تعالوا أُحدّثكم عن عليّ .فهجم الناس من جميع الأطراف يريدون أن يسمعوا حديث ميثم. وإذ ترى الحكومة الأموية أن مصالحها في خطر، تأمر بإلجام فمه، وبعد أيام تقتله.

إن تواريخ أمثال هؤلاء العشاق يدور كثيراً حول عليّ.

هذا الجذب لا يختص بعصر دون عصر، ففي جميع العصور تجد تجليات من هذا الجذب الطاغي الّذي فعل فعله العميق.

هنالك شخص باسم (ابن السكّيت) من كبار علماء العرب وأُدبائهم، وما يزال اسمه يتردد كلما تردد اسم سيبويه وأضرابه .عاش هذا الرجل في عصر الخليفة المتوكل العباسي. وكان متهماً بالتشيع لعليّ بعد موت عليّ بمائتي سنة، ولكن لفضله وسعة علمه اتخذه المتوكل معلماً لولديه.. في أحد الأيام دخل على المتوكل ولداه بحضور ابن السكّيت، فأبدى المتوكل رضاه عنهما لتفوقهما في أداء الامتحان، وخطر له ـ استناداً إلى ما كان يشاع عن ابن السكّيت من تشيع لعليّ ـ أن يسأله:

أتراك تحب ولدي هذين أكثر من الحسنين ولدي عليّ؟

فاستفزت هذه المقارنة ابن السكّيت فغضب لها أشد الغضب، وقال في نفسه: أبلغت الجرأة بهذا المغرور أن يقارن ولديه بالحسنين؟! إنّني أنا المقصر لكوني قبلت تعليمهما. ثمّ قال للمتوكل:

»والله ان قنبر مولى عليّ لأحب إليَّ مرات من هذين وأبيهما.«

فغضب المتوكل، وأمر به فقطعوا لسانه من أصله.

إن التاريخ يعرف الكثيرين ممن لا شهرة لهم ضحوا بأرواحهم في سبيل حب عليّ(عليه السلام).. فأين تجد

هذه الجاذبية في العالم؟ لا أحسب أن لها شبيهاً.

وإن لعليّ(عليه السلام) كذلك من الأعداء من ينقلب حاله عند سماع اسمه. لقد مضى عليّ كفرد، وبقي كمدرسة تجتذب إليها جماعات وتطرد عنها جماعات.

نعم، عليّ هو الشخصية ذات القوتين!

(1)التوبة: ٧١.

(2)التوبة: الآية ٦٧.

(3)أمّا اليوم فيعتبرون بنية الجسم كالماكنة، ويرون عملية الدفع كعمل المضخة.

(4)عرفي شاعر ايراني عاش في القرن العاشر كان يختلف إلى بلاط الامبراطور أكبر في الهند.

(5)الأنبياء: ١٠٧.

(6)بل لقد شمل حبه كلّ شيء، حتّى الحيوانات والجمادات، لذلك نرى في سيرته أن لكلّ ممتلكاته أسماء خاصة بها: خيوله وسيوفه وعمائمه... الخ. وإن دل هذا على شيء فإنّما يدل على وجود علاقة بينه وبين الكائنات الأُخرى وهي كلها موضع حبه، وكأ نّه كان يرى لكلّ شيء شخصية قائمة بذاتها. إن التاريخ لا يذكر عن وجود مثل هذا السلوك في شخص آخر. والحقيقة أن هذا السلوك يحكي عن كونه كان رمز الحب والمحبة الإنسانية. مرّ يوماً بجبل أُحد فنظر إليه بعينيه المشعتين المليئتين بالمحبة وقال: «جبل يحبنا ونحبه». هذا إنسان يفيض حبه على الحجر والجبل.

(7)بحار الأنوار: ١٩٢/٤٢ و١٩٤ ط حديثة.

(8)يمكن القول بأن النقمة ـ أيضاً ـ مظهر من مظاهر المحبة. فنحن نقرأ في الدعاء: «يامن سبقت رحمته غضبه» أي إنّك إذ شئت الرحمة غضبت، فلولا رحمتك ومحبتك ما غضبت. كالأب الّذي يغضب على ابنه لأ نّه يحبه ويتطلع إلى مستقبله .فهو يغضب إذا رآه ارتكب جرماً، وقد يعاقبه، ولكنه قد لا يهتم كثيراً إذا رأى أبناء الآخرين يرتكبون الجرم نفسه. لقد غضب على ابنه لأ نّه يحبه، ولم يغضب على الآخرين لأ نّه لا يحبهم.

ولكن قد تكون بعض العواطف كاذبة، أي إنّها مجرد أحاسيس لا يتحكم فيها العقل. وقد جاء في القرآن الكريم:

(وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأفَة فِي دِينِ اللهِ)النور / ٢. وذلك لأن الإسلام يعنى بالأفراد كما يعنى بالمجتمع. ولقد قال الإمام عليّ(عليه السلام:(

»أشد الذنوب ما استهان به صاحبه» نهج البلاغة: ح ٣٤٠. إن شيوع الذنوب هو الّذي يسقط أهميتها من الأعين ويظهرها تافهة في نظر المرء.

لذلك يقول الإسلام إنّه إذا ارتكب ذنب ولم يكن ذلك في خفاء كامل بحيث أن بعضهم اطلع عليه، فينبغي أن ينال المذنب عقابه من حد أو تعزير، فقد جاء في الفقه الإسلامي عموماً أن ترك أي واجب واقتراف أي محرم ـ إذا لم يكن له حد معين ـ يستوجب التعزير (والتعزير عقاب أدنى من الحد يقرره القاضي). فعند ارتكاب أحدهم ذنباً وإشاعته يقترب المجتمع خطوة نحو الإثم، وهذا من أخطر الأُمور على المجتمع. لذلك يجب أن يعاقب المذنب عقاباً يتناسب وجرمه، لكي يعود المجتمع إلى طريقه السوي، ولا تسقط أهمية الذنوب من عينه.

وعليه فإن النقمة والعقاب ضرب من المحبة نحو المجتمع.

(9)نهج البلاغة: الحكمة .11

(10)أُنظر مقدمة الجزء الأوّل من كتابنا «خاتم الأنبياء ص ١١ و١٢.«

(1)

قوة جاذبة عليّ

الجواذب القوية

جاء في مقدمة الجزء الأوّل من «خاتم الأنبياء «وبشأن «الرسالات» ما يلي:

»إنّ الرسالات الّتي ظهرت بين الناس لم تكن على منوال واحد، كما لم يكن شعاع تأثيرها متساوياً.

بعض الدعوات والأنظمة الفكرية كان ذا بعد واحد، تقدم باتجاه واحد، وقد عم في بداية ظهوره شرائح واسعة من الناس ويتبعه الملايين منهم. ولكن ما أن انتهى زمانه حتّى طوي بساط وجوده وأُسلم إلى النسيان.

وبعض آخر كان ذا بعدين، بعث شعاعه إلى اتجاهين، وشمل طبقات واسعة من الناس وتقدم في عصور عديدة، ولم يقتصر على البعد المكاني بل تعداه إلى البعد الزماني أيضاً.

وثمة دعوة تقدمت في اتجاهات مختلفة، وضمت جماعات من البشر واسعة تحت نفوذها، بحيث أننا نرى آثارها في كلّ قارة من القارات، وكان لها بعد زماني أيضاً، أي إنّها لم تكن خاصة بزمان وعصر معينين، بل حكمت بكلّ اقتدار خلال قرون طويلة، وتعمقت جذورها في دخائل النفوس واستولت على ضمائر الناس وهيمنت على قلوبهم وأمسكت بزمام مشاعرهم. إنّ دعوات كهذه هي الدعوات ذوات الأبعاد الثلاثة الّتي اضطلع بها الأنبياء.

فأين يمكن العثور على مدرسة فكرية وفلسفية استطاعت ـ مثل الأديان العظيمة ـ أن تحكم ملايين الناس مدة ثلاثين قرناً أو عشرين قرناً أو أربعة عشر قرناً كحد أدنى، وأن تستولي على جماع مشاعر أتباعها وما في أعماقهم؟.«

كذلك هي القوّة الجاذبة، فبعض ذات بعد واحد، وبعض ذات بعدين، وبعض ذات ثلاثة أبعاد.

جاذبة عليّ(عليه السلام) من النوع الأخير، فهي قد جذبت مجاميع واسعة من البشر، وليست مقصورة على قرن واحد أو قرنين اثنين، بل استمرت خلال القرون الماضية كلها واستمرت.. إنّها حقيقة ما زالت تتلألأ على ملامح القرون والعصور، وقد غارت حتّى أعماق القلوب، بحيث أن الناس بعد قرون إذا ذكروه وذكروا أخلاقه وسجاياه انهمرت دموع الشوق من عيونهم وبكوا على مصائبه، الأمر الّذي أثر حتّى في نفوس الأعداء

واستذرف دموعهم. وهذه أشد الجاذبات قوة.

من هنا يمكن أن ندرك أن صلة الإنسان بالدين ليست من الصلات المادية، بل هي ارتباط مختلف لا يشبهه أي ارتباط بين الإنسان وبين أي شيء آخر.

ولو لم يصطبغ عليّ(عليه السلام) بصبغة الله ولم يكن من رجال الله لكان قد طواه النسيان، إن في تاريخ البشر أبطالا كثيرين: أبطالا في القول، وأبطالا في العلم والفلسفة، وأبطالا في القوّة والسلطة، وأبطالا في ميادين الحروب.. ولكن الإنسان قد نسيهم جميعاً، أو أ نّه لم يعرفهم أصلا، غير أن عليّاً لم يمت بموته وإنما ازداد حياة ـ إن صح التعبير ـ وهو نفسه يقول:

»هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ :أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، أَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»(١.(

ويقول عن نفسه:

»غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي»(٢.(

في الحقيقة، عليّ(عليه السلام) أشبه بقوانين الفطرة الّتي تظل خالية أبداً. إنّه منبع فياض لا ينضب، بل يزداد فيضه على مر الأيام. وهو ـ كما يقول عنه جبران خليل جبران: «شخصية ولدت قبل زمانها.« بعض الناس يصل إلى مركز القيادة في زمانه، وبعض يستمر في قيادته قليلا بعد زمانه حتّى ينساه الناس، أمّا عليّ(عليه السلام)، وبعض آخرون من الناس، فهم من الهداة والقادة دائماً وأبداً.

التشيع مدرسة المحبة والعشق

من أهم ميزات الشيعة على سائر المذاهب الأُخرى هو أن أساس مذهبهم المحبة. فمنذ عهد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم (الّذي وضع فيه حجر الأساس لهذا المذهب، كان الكلام يدور على المحبة والموالاة، حتّى أننا إذ نسمع النبيّ الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم (يقول: «عليّ وشيعته هم الفائزون»(٣) نجد جمعاً من الناس قد تحلقوا حول عليّ(عليه السلام) وقد جذبهم إليه واستغرقهم حباً. ولهذا نرى التشيع مذهب الحب والوله. إن لعنصر المحبة في التشيع أهمية كبيرة، وتاريخ التشيع يقترن بأسماء مجموعة من العشاق والمضحين المدلهين في الحب.

عليّ(عليه السلام) هو ذلك الّذي وإن كان يقيم الحدود الإلهية على الناس ويجلدهم ويقطع يد سارقهم بموجب

الشرع، فإنّهم لم يلووا عنه كشحاً ولم تنقص محبتهم له أبداً، وهو في هذا يقول:

»لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَاأَبْغَضَنِي، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي: وَذلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الاْ ُمِّيِّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أَنَّهُ قَالَ: « يَا عَلِيُّ، لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ»(٤).

إنّ عليّاً ميزان توزن به الفطرة والطينة. فمن كان ذا فطرة سليمة وطينة طاهرة لا يبغضه حتّى لو ضرب خيشومه. ومن كان ذا فطرة ملوثة لا يحبه حتّى لو أحسن إليه كلّ الإحسان، لأنّ عليّاً(عليه السلام) ليس سوى الحقّ متجسداً.

ها هو رجل من محبي عليّ أميرالمؤمنين(عليه السلام)، ذو فضيلة وإيمان، ولكن مما يؤسف له أ نّه قد زلت قدمه، فكان لابدّ من اجراء الحد عليه. قطع عليّ(عليه السلام)أصابعه اليمنى، فأمسك بها بيده اليسرى ومضى وقطرات الدم تنزف منه. فأراد ابن الكواء أن يستغل هذا الحدث لمصلحة أصحابه الخوارج وضد عليّ(عليه السلام) فتقدم نحوه وقد ارتدى ملامح التعطف والترحم وسأله: «من قطع يمينك؟.«

فقال :

»قطع يميني سيد الوصيين، وقائد الغر المحجلين وأولى الناس بالمؤمنين، عليّ بن أبي طالب، إمام الهدى... السابق إلى جنات النعيم، مصادم الأبطال، المنتقم من الجهال، معطي الزكاة... الهادي إلى الرشاد، والناطق بالسداد، شجاع مكي، جحجاج وفي.«...

فقال ابن الكواء:

»الويل لك! يقطع يمينيك وتثني عليه.«!

فقال:

»كيف لا أثني عليه وقد خالط حبه لحمي ودمي !والله ما قطع يدي إلاّ بما أنزله الله»(٥).

هذه النماذج من العشق والولوع الّتي نراها في تاريخ عليّ وأصحابه تجرنا إلى مسألة المحبة والحب وآثارهما.

إكسير المحبة

يطلق شعراء الفرس على العشق لفظة (إكسير) وكان أصحاب الكيمياء يعتقدون أن في العالم مادة أسموها

«الإكسير»(٦) أو «الكيمياء» تستطيع أن تحيل المادة إلى مادة أخرى، فراحوا يبحثون عن هذه المادة قروناً طويلة.

وقد استعمل الشعراء هذا المصطلح وقالوا: إنّ الإكسير الحقيقي القادر على التغيير والتحويل هو الحب، فالحب هو القادر على قلب الماهيات. العشق هو الإكسير وله خصائص الكيمياء، أي إنّه يبدل المعدن معدناً آخر، والناس معادن.

»الناس معادن كمعادن الذهب والفضة». الحب هو الّذي يجعل القلب قلباً، فلولا الحب لكان القلب مجرد ماء وطين.

ومن آثار الحب والقوّة والقدرة. إنّه يخلق القوّة ويحيل الجبان شجاعاً.

إنّ الدجاجة ما دامت وحيدة تطبق جناحيها وتدرج في هدوء، وقد تمد رقبتها لتلتقط دودة، وتفزع هاربة من أتفه صوت، ولا تبدي أية مقاومة حتّى أمام الطفل الضعيف. إلاّ أن هذه الدجاجة نفسها إذا صارت أُمّاً، وتمكن الحب من حنايا كيانها، تغير حالها، فتراها وقد أنزلت جناحيها في حالة التهيؤ للدفاع، وتتخذ هيئة المحارب، وحتّى صوتها يمتلىء قوة وشجاعة.. كانت من قبل تهرب عند استشعار الخطر، أمّا الآن فإنّها تهجم عند استشعار الخطر، وتهجم بكلّ جرأة، إنّه الحب الّذي أحال هذه الدجاجة الجبانة إلى حيوان جريء وشجاع!

إنّ الحب يحيل الثقيل الكسول إلى خفيف سريع الحركة، بل إنّه يحيل الأحمق إلى ذكي حادّ الذهن.

هذا الفتى وهذه الفتاة اللذين لم يكونا يفكران ـ وهما خليلين ـ إلاّ فيما يخصهما وحدهما، أصبحا ـ بعد ن ارتبطا برباط الزواج وتكوين العائلة ـ لا يفكران إلاّ فيما يخص الطرف الآخر، فتتداخل أشعة مطاليبهما، وما أن يرزقا بالوليد حتّى يتغيران كلّ التغير. فذاك الفتى المتثاقل الكسول غداً سريعاً كثير الحركة، وتلك الفتاة الّتي لم تكن تغادر الفراش إلاّ بعناء، أمست الآن كالبرق الخاطف انطلاقاً إذا سمعت صوت طفلها النائم في المهد. ترى ما تلك القدرة الّتي أزالت ذلك الكسل والتراخي واستبدلته بكلّ هذا النشاط والحركة؟ إنّها الحب ليس غير!

إنّه الحب الّذي يحيل البخيل كريماً، والعجول صبوراً!

إنّه الحب الّذي يجعل من الدجاجة الأنانية الّتي لم تكن تفكر إلاّ في نفسها، وتلتقط الحب لحياتها، حيواناً جواداً إذا وجدت حبة نادت فراخها. وإنّه الحب الّذي يجعل من الأُم الّتي كانت بالأمس القريب أنانية، مغرورة، كسولة تستعجل الأُمور ثائرة الأعصاب، ضعيفة البصر، قليلة التحمل، امرأة عجيبة في صبرها وتحملها

ورضاها بالجوع والعطش والتعب وقلة النوم وانعدام الأناقة وتحمل مشاق الأمومة.

إن من آثار الحب الرقة واللطف وتجنب الخشونة والفظاظة، ومن آثاره تلطيف العواطف والأحاسيس، وكذلك التوحيد والتوحد والتركيز، والقضاء على التشتت والتفرق، ومن بلوغ القوّة الحاصلة من الاتحاد والتجمع.

أمّا في الشعر والأدب فإنّنا نصادف أثراً واحداً من آثار الحب، وهو فيض الوحي والإلهام، يقول حافظ الشيرازي ما ترجمته:

)البلبل من فيض الورد تعلم الكلام، وإلاّ ما كان ***كل هذا القول والغزل معبأ في منقاره)(٧(

فعلى الرغم من أن المعنى الظاهري لكلمة «فيض «أمر خارج عن وجود البلبل، إلاّ أ نّه ليس في الحقيقة سوى قدرة الحب.

لا تظنن مجنوناً أُضيب بالجنون جزافاً *** فهو »مجذوب» ليلى من قرنه إلى قدمه)(٨(

إن الحب يوقظ القوى النائمة ويطلق الطاقات المقيدة. مثل ذلك انفلاق الذرة وانطلاق طاقاتها.

إنّه يلهم، ويصنع الأبطال. وما أكثر الشعراء والفلاسفة والفنانين الّذين خلقهم حب قوي!

الحب يوصل النفس إلى كمالها ويظهر المواهب الكامنة المحيرة. إنّه يلهم القوى المدركة، ويقوي مشاعر الإرادة والعزيمة. وإذا ما تسامى في العلى صنع الكرامات وخوارق العادات.

إنّه يطهر الروح من الأخلاط والشوائب. فالحب، بعبارة أُخرى، يصفّي. إنّه يمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية أو من البرود وانعدام الحرارة، كالبخل، والتقتير، والجبن، والكسل، والتكبر والعجب. إنّه يزيل الحقد والحسد، وإن قيل أن الحرمان والإخفاق في الحب يمكن أن يخلقا بدورهما الحقد والعقد.

)بالحب يحلو كلّ مر *** بالحب يصيح النحاس ذهباً)(٩(

أثر الحب على الروح اعمار وبناء، وعلى الجسم تذويب وتخريب. إنّ أثره في الجسم عكس تأثيره في الروح، فهو في الجسم باعث على خرابه واصفراره ونحوله وسقمه واختلال هامته وأعصابه، وغير ذلك من صور الهدم والتخريب... ولكنه في الروح ليس كذلك، بحسب موضوع الحب، وما يريديه المحب منه. فإذا تجاوزنا آثار الحب الاجتماعية، فإنّه من حيث آثاره الروحية الفردية تكميلي، لأ نّه يولد القوّة والرقة والصفاء والاتحاد والهمة، ويقضي على الضعف والجبن والكراهية والتفرق والبلادة، وينقي الروح من الشوائب الّتي هي «الدسّ» بتعبير القرآن، ويزيل الغش ويجعل العيار خالصاً.

تحطيم الحدود

إن الحب ـ بصرف النظر عن نوعيته، حيواناً جنسياً كان أم حيوانياً أو إنسانياً نسلياً، وبصرف النظر عن مزايا الحبيب وصفاته من شجاعة وبطولة وفن وعلم، أو كان ذا أخلاق وآداب وصفات خاصة ـ يخرج المرء من الفردية والأنانية. الأنانية تقيد وتحديد، والحب يحطم هذه القيود والحدود. وما لم يخرج الإنسان من ذاته يكون ضعيفاً، خائفاً، بخيلا، حسوداً، شريراً، عجولا، محباً لذاته، متكبراً، كليل الروح، فاتر الهمة والنشاط، منطفئاً دائم البرود. ولكنه ما إن يضع قدمه خارج «ذاته «ويحطم ما أحاط نفسه به من حدود، حتّى تتلاشى كلّ تلك الصفات الرذيلة.

إن الأنانية بذلك المفهوم القبيح الّذي ينبغي التخلص منه ليس تلك الحالة الوجودية أو العلاقة الوجودية الّتي تربط الإنسان بذاته وكينونته. إذ لا معنى لأن يسعى المرء كيلا يحب نفسه. إن »حب الذات» الّذي جبل عليه الإنسان لم يخلق عبثاً لكي يحاول اجتثاثه من دخيلته. إنّ صلاح الإنسان وبلوغه الكمال لا يعني أن هناك مجموعة من الأُمور الزائدة قد عبئت في ذاته، فعليه أن يسعى لإزالة تلك الأُمور الزائدة المذمومة المضرة، وبعبارة أخرى: تكامل الإنسان لا يكون بالحذف منه، بل بالاضافة إليه. إن الواجب الملقى على كاهل الإنسان هو السير نحو الاكتمال، وهذا يكون بالاستزادة، لا بالانتقاص.

أمّا الصراع مع «حب الذات» فهو الصراع مع »محدودية الذات» وضيقها. فالذات ينبغي أن تزداد سعة، وهذا الحصار الّذي ضربته حول نفسها ـ ذلك الحصار الّذي يجعلها لاترى إلاّ ما يخصها هي بالذات ويبعدها عن رؤية ما للآخرين ـ يجب أن يتحطم، لتتسع شخصية الإنسان فتسع الآخرين بل تسع العالم كله. إذن... فالنضال ضد «حب الذات «يقصد به النضال ضد هذا الحصار، ضد الحدود والقيود الّتي تحد ذات الإنسان. فالمقصود بحب الذات هنا ليس سوى محدودية الفكر وضيقه. ويأتي الحب ليحول ميول المرء ورغباته من داخل ذاته إلى خارجها، ويوسع من حدود كيانه ويغير من طبيعة وجوده. وعلى هذا فالحب من العوامل الكبيرة في التربية الأخلاقية، إذا ما وجد الهداية الصحيحة واستغل الاستغلال النافع.

الحب.. يبني أم يخرب؟

إن التعلق بشخص أو بشيء، إذا بلغ أوج شدته بحيث أ نّه يكتسح وجود الإنسان ويسخره ويصبح الحاكم المطلق عليه، يكون هو الحب أو العشق، وهو القمة من المشاعر والعواطف.

إلاّ أننا ينبغي ألاّ نظن أن هذا الّذي أطلقنا عليه اسم (الحب) نوع واحد. كلا، إنّه نوعان مختلفان كلّ الاختلاف. إن الآثار الحسنة الّتي سبق ذكرها تختص بأحد النوعين. أمّا آثار النوع الآخر فهدامة مخربة، على النقيض من الأوّل.

إن لمشاعر الإنسان مراتب ودرجات. بعضها ينطوي تحت مقولة الشهوات، وعلى الأخص الشهوة الجنسية، وهذا مما يشترك فيه الإنسان والحيوان، إلاّ انها في الإنسان تصل إلى درجة الغليان أحياناً لأسباب لا مجال لذكرها الآن، فيطلق عليها ـ لذلك ـ اسم الحب، ولكنها ليست بهذه الصورة في الحيوان أبداً. ولكنها على كلّ حال ليست سوى فوران الشهوة وطغيانها، بادئة بالغريزة الجنسية ومنتهية بها. وإنّما يرتبط ارتفاعها وانخفاضها إلى حد كبير بالنشاط الفزيولوجي في أعضاء التناسل وبقوة الحيوية في الشباب، وضعفها التدريجي في الشيوخ.

أن الشاب الّذي يرتجف كلما رأى وجهاً مليحاً وشعراً جعداً، ويتلوى على نفسه كلما لمس يداً ناعمة ظريفة، فليعلم أن الأمر ليس سوى الجريان المادي الحيواني.. هذا النوع من الحب سريع المجيء سريع الذهاب، لا يعتمد عليه، ولا يقبل نصيحة. إنّه خطر يقتل الفضيلة، ولا يمكن درء خطره إلاّ بالعفاف والتقوى وعدم الاستسلام. أي إن قوة هذا الحب لا تسوق الإنسان نحو أية فضيلة.

ولكنه إذا نفذ إلى كيان المرء ووقف وجهاً لوجه مع العفاف والتقوى، واستطاعت النفس أن تتحمل ضغطه دون أن تستسلم، فهو عندئذ يمنح الروح قوة وكمالا.

في الإنسان نوع آخر من المشاعر تختلف في حقيقتها وماهيتها عن الشهوة، ولنا أن نطلق عليه اسم «العاطفة» أو، كما يسميه القرآن «المودة» و «الرحمة.«

عندما يكون الإنسان تحت تأثير شهواته، لا يكون قد خرج من ذاته، فهو يرغب في الشخص أو الشيء ويريده لنفسه ويلح في طلبه. فإذا فكر في الحبيب فإنّما يفكر كيف ينال وصاله ويبلغ أقصى المتعة منه. بديهي أن هذه الحالة لا يمكن أن تكمل الإنسان وتربي روحه وتهذبها.

إلاّ أنّ الإنسان قد يقع تحت تأثير عواطفه الإنسانية السامية، فيصبح المحبوب والمعشوق في نظره شيئاً عظيماً محترماً يتمنى له السعادة، ويفتدي رغباته بنفسه. هذه العواطف تخلق في المرء مشاعر الصفاء والحميمية واللطف والرقة ونكران الذات، بخلاف النوع الأوّل الّذي يقوم على الغلظة والحيوانية والإجرام. إنّ من أمثلة النوع الأخير محبة الأُم لأطفال.

إنّ هذا النوع من العواطف هو الّذي إذا بلغ أوج قوته وكماله أوجد تلك الآثار الطيبة الّتي ذكرناها. وهذا النوع هو الّذي يمنح النفس جلالها وعظمتها وشخصيتها، بخلاف النوع الأوّل الّذي يجعل صاحبه وضيعاً حقيراً. إن هذا النوع هو الحب المكين الّذي يزداد بالوصال شدة وحدة، بخلاف النوع الأوّل الّذي يكون سريع الانهيار، وفي الوصال نهايته.

يصف القرآن الكريم العلاقة بين الزوجين بالمودة والرحمة: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)(١٠). وفي هذا شيء كثير من السمو، فهو يشير إلى الجانب الإنساني المترفع عن الحيوانية في الحياة الزوجية، وإلى أن عامل الشهوة ليس الرابط الطبيعي الوحيد فيها، بل إنّ الرابط الأصيل فيها هو الصفاء والحميمية واتحاد الروحين وبعبارة أخرى: إنّ ما يجمع الزوجين ويوحّد بينهما هو حرارة المحبة والمودة والصفاء، لا تلك الشهوة الموجودة في الحيوانات أيضاً.

إنّ الفلاسفة الماديين لم يستطيعوا إنكار هذه الحالة الروحية الّتي لها جوانبها غير المادية والّتي لا يرونها تنسجم مع معادية الإنسان.

يقول برتراند راسل في كتابه (الزواج والأخلاق:(

»إنّ العمل الّذي لا يستهدف إلاّ الربح لن تكون له نتائج مفيدة فلبلوغ هذه النتائج يلزم اختيار عمل ينطوي على الإيمان بفرد أو بشيء. كذلك الحب، فهو إذا استهدف وصال الحبيب فحسب كان على مستوى العمل طلباً للربح نفسه، ولم يزد شيئاً في كمال شخصيتنا. وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي على المحب أن يرى «الأنا» في الحبيب مثل «الأنا «في ذاته أهمية، وأن يعتبر مشاعر الحبيب ورغباته مشاعره هو ورغباته.«

ثمة نقطة أُخرى جديرة بالتذكر، وهي ما قلناه عن أ نّه حتّى الحب الشهواني قد يكون ذا فائدة، ولا يكون ذلك إلاّ إذا صاحبته التقوى والعفاف، فالنأي والحرمان من جهة، والعفاف والطهارة من جهة أُخرى، تسبب العذاب والضغط والألم للروح، فتكون لها آثار نافعة.

وفي هذا يقول المتصوفون: إنّ الحب المجازي يتحول إلى حب حقيقي، إلى حب الله ذاته. وفي هذا ـ أيضاً ـ يروي أن «من عشق، وكتم، وعف، ومات، مات شهيداً.«

ولكن ينبغي أن لا يغرب عن بالنا أنّ هذا النوع من الحب ـ على الرغم مما قد يكون فيه من فائدة ـ ليس مما يمكن تحبيذه .إنّه لواد ذي خطر، ويشبه في هذا المصيبة الّتي تحيق بالمرء، فإن واجهها بالصبر والرضى، كانت مكملة لشخصه ومطهرة لنفسه، فتضج الغِر، وتصفي الكدر، ومع ذلك فالمصيبة لا يمكن تحبيذها، إذ

ليس من المعقول أن يستنزل المرء على نفسه المصائب، ولا على غيره بهدف الوصول عن طريقها إلى تلك الفوائد.

إنّ لبرتراند راسل في هذا أيضاً قول جميل:

»العذاب يملأ الناس بالطاقة كالثقل الثمين. إنّ من يجد نفسه سعيداً كلّ السعادة لن يبذل أي جهد للاستزادة منها. إلاّ أ نّني لا أرى في هذا عذراً مقبولا يدفعنا إلى تعذيب الآخرين لحملهم على التقدم نحو الخير، لأنّ ذلك في أغلب الأحيان يؤدي إلى عكس المطلوب ويحطم الإنسان. وعليه فالأفضل أن نستسلم لما يصادفنا في منعطفات مسيرة الحياة»(١١.(

إنّ الإسلام ـ كما نعلم ـ يذكر كثيراً آثار البلايا وفوائدها، وأ نّها من ألطاف الله تعالى، إلاّ أ نّه لا يجيز لأحد اتخاذ ذلك ذريعة لخلق المصائب للنفس أو للآخرين.

ثم إنّ هناك اختلافاً بين الحب والمصيبة، وهو أنّ الحب من أشد العوامل الأُخرى «مجانبة للعقل» فحيثما وضع الحب قدمه أنزل العقل عن عرش سلطانه. ولهذا نجد الأدب الصوفي يشير إلى العشق والعقل كرقيبين. ومن هنا ـ أيضاً ـ جاء التضاد بين الفلاسفة والمتصوفة، فأولئك يعتمدون العقل هادياً، وهؤلاء يتخذون الحب مرشداً.

والمتصوفة في أدبهم يجعلون العقل محكوماً عليه ومغلوباً في ميدان التنافس مع العقل. هذا سعدي يقول ما ترجمته:

)ينصحني الّذين يريدون لي الخير: * صنع اللَّبن فوق البحر لا جدوى فيه(**

)ان قوة الشوق تغلب الصبر * ودعوى العقل على العشق باطلة(**

ويقول آخر ما ترجمته:

قارنت حكمة العقل في طريق الحب * فكان كقطر الندى يرسم على مياه البحر(**

إنّ طاقة تكون بهذه القوّة وتأخذ زمام الاختيار من يد الإنسان، وكما يقول مولوي: «تجعل المرء كريشة في مهب الرياح» أو كما يقول برتراند راسل: «هي أقرب إلى الفوضى» كيف يمكن الدعوة لها والايصاء بها؟ ومهما يكن، فكون الأمر مقيداً شيء، وتجويزه والإيصاء به شيء آخر.

وعليه، فليس هناك ما يدعو لقبول اعتراض بعض المتشرعين على بعض فلاسفة الإسلام(١٢) لتطرقهم في بحث الإلهيات إلى آثار الحب وفوائده، وذلك لأ نّهم اعتقدوا أنّ أُولئك الفلاسفة يعتبرون الإيصاء بالحب جائز،

مع أ نّهم قصدوا إلى ذكر فوائده في جو من التقوى والتعفف، ولم يقولوا بجوازه أو الايصاء به، كما هي الحال مع المصائب والبلايا تماماً.

حب الأولياء

قلنا: إنّ الحب لا يقتصر على الحب الحيواني الجنسي، ولا الحب الحيواني النسلي، بل إنّ هناك نوعاً آخر ينمو في جو أعلى وأرفع، خارج حدود الماديات، ويستمد وجوده مما وراء غريزة بقاء النوع. وهو ـ في الحقيقة ـ الحد الفاصل بين عالم الإنسان وعالم الحيوان. إنّه الحب المعنوي الإنساني. إنّه تعشق فضائل الإنسن وما فيه من خير، والولوع بالسجايا الإنسانية وجمال الحقيقة.

وهذا الحب هو الّذي يرد كثيراً في القرآن تحت ألفاظ «المحبة» وأحياناً «الود» أو «المودة». ويمكن تقسيم الآيات الخاصة بهذا في القرآن إلى عدة أقسام، فمنها:

1ـ الآيات الّتي وردت في وصف المؤمنين وتتحدث عن حبهم العميق لله أو للمؤمنين:

)وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ)(١٣.(

)وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)(١٤.(

2ـ الآيات الّتي تتحدث عن حب الله للمؤمنين:

)إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ)(١٥.(

)وَاللّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ)(١٦.(

)إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ)(١٧.(

)وَاللّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ)(١٨.(

)إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ)(١٩.(

3ـ الآيات الّتي تتضمن الحب المتبادل بين الطرفين، حب الله للمؤمنين وحب المؤمنين لله، وحب المؤمنين بعضهم بعضاً:

)قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)(٢٠.(

)فَسَوْفَ يَأتِي اللّهُ بِقَوْم يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)(٢١.(

)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)(٢٢.(

)وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)(٢٣.(

وهذا هو الحب الّذي أراده إبراهيم لذريته(٢٤(، وما طلبه نبينا(صلى الله عليه وآله وسلم)لأهله بأمر من الله(٢٥.(

ويستفاد من الروايات أن روح الدين وجوهره ليس سوى الحب والمحبة. يقول بريد العجلي:

كنت في حضرة الإمام الباقر(عليه السلام) فدخل عليه مسافر من خراسان كان قد قطع تلك المسافة الطويلة للتشرف برؤية الإمام، فعندما نزع نعليه رأيت الشقوق في قدميه. قال: والله لم يأت بي آت من حيث جئت سوى حبكم أهل البيت. فقال الإمام(عليه السلام): والله لو أحبنا حجر لحشره الله معنا «وهل الحب إلاّ الحب»(٢٦.(

قال رجل للإمام الصادق(عليه السلام): إننا نسمي أبناءنا بأسمائكم وأسماء آبائكم. أينفعنا هذا في شيء؟ فقال الإمام» :نعم والله. وهل الدين إلاّ بالحب. ثمّ تلا الآية الشريفة: (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ)(٢٧.(

إنّه الحب الّذي يحمل على الطاعة، فالعاشق لن يتأتى له أن يتقاعس عن تحقيق إرادة المعشوق. إنّنا نرى هذا بأعيننا، فهذا الشاب العاشق يضحي بكلّ شيء في سبيل معشوقته.

إن إطاعة الله وعبادته تكون بمقدار حب الإنسان لله تعالى. قال الإمام الصادق(عليه السلام:(

تعصي الإله وأنت تظهر حبه *** هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته *** إنّ المحب لمن يحب مطيع

(1)نهج البلاغة: الحكمة .139

(2)نهج البلاغة: الحكمة .149

(3)ينقل جلال الدين السيوطي في الدر المنثور في شرح الآية السابقة من سورة البينة، عن ابن عساكر عن جابر بن عبدالله الأنصاري قوله: كنت في حضرة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إذ دخل عليّ، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): «والّذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة». وقد ورد مضمون هذا

الحديث باسلوب آخر في كنوز الحقائق للمناوي في روايتين، وفي مجمع الزوائد للهيثمي، وفي الصواعق المحرقة لابن حجر.

(4)نهج البلاغة: الحكمة 42.

(5)البحار: ٢٨١/٤٠ و٢٨٢ ط حديثة، والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي، ذيل الآية ٩ من سورة الكهف.

(6)جاء في البرهان القاطع عن الإكسير: أ نّه جوهر مذيب ومازج ومكمل، وهو يحول النحاس إلى ذهب، كما أ نّهم يطلقون هذه الكلمة على العقاقير النافعة، وعلى رأي المرشد الكامل، من باب المجاز. وهذه الخصائص الثلاثة ـ في الحقيقة ـ موجودة في الحب، فهو يذيب ويمزج ويكمل. إلاّ أن وجه الشبه المعروف هو هذه الخصيصة الأخيرة، أي التغيير التكميلي. ولذلك فالشعراء قد يسمّون الحب بالطبيب والدواء وأفلاطون وجالينوس ...الخ.

(7)لسان الغيب حافظ الشيرازي.

(8)للعلاّمة الطباطبائي.

(9)المثنوي المعنوي ترجمة.

(10)الروم: ٢١.

(11)برتراند راسل (زناشوئي وأخلاق): ١٣٤.

(12)مثل ابن سينا في)رسالة العشق) وصدر المتألهين في السفر الثالث من أسفاره.

(13)البقرة: ١٦٥.

(14)الحشر: ٩.

(15)البقرة: ٢٢٢.

(16)آل عمران: ١٤٨.

(17)التوبة: ٤ و٧.

(18)التوبة: ١٠٨.

(19)المائدة: ٤٢.

(20)آل عمران: ٣١.

(21)المائدة: ٥٤.

(22)مريم: ٩٦.

(23)الروم: ٢١.

(24)إشارة إلى الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

(25)إشارة إلى الآية ٢٣ من سورة الشورى.

(26)سفينة البحار: ٢٠١/١ مادة «حب.»

(27)المصدر نفسه: ٦٢٢ مادة »سما» والآية من آل عمران٣١.

أصول عقائد الخوارج

يرجع أصل فكرة الخوارج إلى الأُمور التالية:

1- تكفير عليّ وعثمان ومعاوية وأصحاب الجمل وأصحاب التحكيم - الّذين يرتضون التحكيم عموماً - إلاّ إذا تابوا عن رضاهم بالتحكيم.

2- تكفير الّذين لا يقولون بتكفير عليّ وعثمان ومعاوية والآخرين الّذين ذكرناهم.

3- الإيمان ليس عقيدة قلبية فحسب، بل إنّ العمل بالأوامر وترك النواهي جزء من الإيمان، فالإيمان مركب من الاعتقاد والعمل.

4- وجوب الثورة على الوالي والإمام الظالم دون قيد أو شرط يقولون ليس للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي شرط، وإنّ من الواجب القيام بذلك دائماً وبدون استثناء(١.)

لقد ظهر هؤلاء بهذه العقائد واعتبروا جميع الناس على وجه الأرض كفّاراً مخلدين في النار وأهدروا دمائهم.

الخوارج والخلافة

إنّ الفكرة الوحيدة عند الخوارج، والّتي يرى المُحْدَثون اليوم أ نّها فكرة لامعة، هي نظريتهم في الخلافة والّتي كانت ذات صبغة ديمقراطية. كانوا يقولون: إنّ الخلافة يجب أن تتعين في انتخابات حرة، وأجدر الناس بها من كان ذا تقوى وصلاح، سواء أكان من قريش أم لم يكن، وسواء أكان من احدى القبائل المرموقة أم من احدى القبائل الضائعة، وسواء أكان عربياً أم لم يكن.

ثم بعد انتخابه ومبايعته بالخلافة، إذا خالف مصلحة المجتمع الإسلامي فإنّه يعزل عن الخلافة، وإذا رفض فلابدّ من مقاتلته وقتله(٢).

إنّهم في هذا يقفون في موقف التعارض مع الشيعة الّذين يقولون: إنّ الخلافة أمر إلهي، وإنّ الخليفة يجب أن يعينه الله.

إنّهم... كذلك يقفون موقف المعارض لأهل السنّة الّذين يقولون إنّ الخلافة يجب أن تكون في قريش ويمسكون بمقولة: إنّما الأئمّة من قريش.

والظاهر أنّ نظريتهم هذه في الخلافة لم يتوصلوا إليها في أول ظهورهم، بل إنّ شعارهم المعروف «لا حكم إلاّ لله» وما جاء في نهج البلاغة أيضاً(٣) يدل على أ نّهم بادىء الأمر كانوا يقولون بأنّ الناس والمجتمع لا حاجة بهم إلى حكومة، بل على الناس أن يعملوا وفق كتاب الله.

ولكنهم بعد ذلك رجعوا عن هذا القول وبايعوا عبدالله بن وهب الراسبي بالخلافة(٤).

الخوارج والخلفاء

كان الخوارج يعتبرون خلافة أبي بكر وعمر صحيحتين بالنظر لكونهما قد اختبرا بالانتخاب الحر، ولأ نّهما لم يخرجا عن المحجة الصالحة ولم يرتكبا ما يخالف الشريعة. كما أ نّهم كانوا يرون صحة خلافة عثمان وعليّ، ولكنهم يقولون: إنّ عثمان قد حاد عن المسير الصحيح في أواخر السنة السادسة من خلافته وتغاضى عن مصالح المسلمين، لذلك كان معزولا عن الخلافة، وبما أ نّه استمر في الحكم فقد كفر ووجب قتله. أمّا عليّ فبقبوله التحكيم بغير أن يتوب بعد ذلك فقد كفر أيضاً ووجب قتله. ولهذا فقد كانوا يتبرأون من خلافة عثمان منذ سنته السابعة، ومن خلافة عليّ بعد قبوله التحكيم(٥).

كذلك... كانوا على خلاف مع الخلفاء الآخرين وكانوا دائماً في حرب معهم.

انقراض الخوارج

لقد ظهرت هذه الجماعة في أواخر العقد الرابع من القرن الأوّل الهجري على أثر خطأ خطير، ولم يدم أمرهم أكثر من قرن ونصف، فنتيجة لتهورهم وجرأتهم الجنونية أثاروا عليهم الخلفاء فتعقبهم هؤلاء حتّى أبادوهم وأبادوا مذهبهم معهم وانقرضوا نهائياً في أوائل تأسيس الدولة العباسية.

إنّ منطقهم الجاف العديم الروح، وجفاف سلوكهم وفظاظته، وبعده عن الحياة.. وأخيراً فإنّ تهورهم الّذي

ألغى حتّى »التقية» بمفهومها الصحيح المنطقي، أدى إلى زوالهم.

لم تكن مدرسة الخوارج مدرسة قادرة على البقاء فعلا، ولكنها أبقت أثرها، فقد نفذت أفكار الخوارج وعقائدهم في مختلف الفرق الإسلامية، فنحن ما زلنا نرى حتّى الآن (نهروانيين) كثيرين لا يقلون خطراً على الإسلام ومعاداة له من الداخل عما كانوا عليه في زمان عليّ(عليه السلام)، بمثل ما أنّ هناك الكثيرين من أمثال معاوية وعمرو بن العاص كانوا موجودين وما زالوا، وهم يستغلون (النهروانيين) ـ أعداءهم ـ في الوقت المناسب.

أشعار أم روح

إنّ البحث في الخوارج وأفكارهم باعتبارهم يمثلون فرقة ـ دينية ـ لا طائل تحته، لأنّ مذهبهم لم يعد له وجود اليوم. إلاّ أنّ دراستهم ودراسة أعمالهم لا تخلو من نفع يعود علينا وعلى مجتمعنا، إذ أنّ مذهبهم وإن يكن قد انقرض إلاّ أنّ روحه ظلت باقية وحلت في الكثيرين منا.

هنا لابدّ لنا من مقدمة قصيرة:

بعض المذاهب يمكن أن يموت من حيث كونه شعاراً، ولكن روحه تظل حية، كما أنّ العكس ممكن أيضاً، فقد يبقى مسلك من حيث كونه شعاراً، حياً وتموت روحه. ولهذا يمكن أن يتبع فرد أو أفراد ـ من حيث الشعار ـ مذهباً من المذاهب، ومن حيث الروح لا يتبعون ذلك المذهب .وقد يكون العكس، فبعضهم قد يتبعون روحياً مذهباً من المذاهب، مع أ نّهم يرفضون شعاراته.

فنحن جميعاً نعلم ـ مثلا ـ أنّ المسلمين افترقوا فرقتين بعد رحيل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): السنّة والشيعة، أولئك ينطوون ضمن اطار عقيدة معينة، وهؤلاء ينطوون ضمن اطار عقيدة معينة أُخرى.

يقول الشيعة: إنّ الخليفة بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة هو عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)، لأ نّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قد عيّنه خليفة بعده بأمر من الله سبحانه وتعالى .أي إنّ ذلك المنصب حقّ خاص له بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).(

والسنّة يقولون: إنّ الإسلام في تعاليمه لم يقل بشيء خاص فيما يتعلق بالخلافة والإمامة، بل عهد إلى الناس أنفسهم بأمر اختيار أميرهم وقائدهم، وإنّه ـ في الأكثر ـ يجب أن يكون من قريش.

إنّ الشيعة يوجهون الانتقاد إلى عدد من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)والشخصيات المعروفة، بينما يقف السنّة ـ في هذا ـ في النقطة المقابلة للشيعة تماماً، فهم يحسنون الظن بكلّ من اتصف بصفة (الصحابي) بصورة مفرطة. يقولون: إنّ الصحابة جميعاً عادلون صادقون. التشيع يبني على النقد والبحث والاعتراض و (استخراج الشعرة من العجين). والتسنن يبني على الحمل على الصحة والتسويغ و (إن شاء الله كانت قطة.(

في هذا العصر والزمان الّذي نعيش فيه، هل يكفي أن يقول أحد: إنّ عليّاً(عليه السلام) هو خليفة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة، حتّى نعتبره شيعياً بغير أن ننتظر منه أي شيء آخر، ومهما تكن روحيته وطراز تفكيره؟

ولكننا إذا رجعنا إلى صدر الإسلام نجد روحية خاصة هي روحية التشيع، تلك الروحية الّتي كانت هي وحدها القادرة على قبول وصية رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن عليّ(عليه السلام (قبولا كاملا من دون أن تصاب إرادتها بالشك والتردد.

وفي النقطة المقابلة لتلك الروحية وذلك الطراز من التفكير كانت تقف روحية أُخرى وطراز آخر من التفكير كان يغمض عينيه عن وصية رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بمختلف التفسيرات والتأويلات، على الرغم من الإيمان الكامل به(صلى الله عليه وآله وسلم.(

إنّ نشأة هذا الانشعاب الإسلامي كان سببها ـ في الحقيقة ـ أنّ فريقاً من المسلمين ـ وكانوا الأكثرية ـ لم تنظر إلاّ إلى الظاهر، إذ أنّ بصرها لم يكن حديداً وعميقاً بما يكفي للوصول إلى باطن الأُمور ورؤية كلّ الوقائع. كانوا يرون الظاهر ويحملون الأُمور على الصحة في كلّ الحالات، فيقولون: إنّ عدداً من كبار الصحابة والشيوخ الّذين لهم سابقة في الإسلام قد ساروا في طريق لا يمكن أن نقول عنه إنّه ليس هو الطريق الصحيح.

أمّا الفريق الآخر، وهم الأقلية، فكانوا يقولون :إنّ الشخصيات تحوز على احترامنا وتقديرنا ما التزمت الحقّ واحترمته .فإذا رأينا أنّ هؤلاء الشيوخ الّذين لهم سابقة في الإسلام هم الّذين يدوسون بأقدامهم على الأُصول الإسلامية، فإنّهم يفقدون احترامنا، لأننا وراء الأُصول لا الشخصيات. وهذه هي الروح الّتي ولد بها التشيع.

إننا عندما نتابع في التأريخ الإسلامي سلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري ومقداد الكندي وعمّار بن ياسر وأمثالهم نريد أن نرى ما الّذي حملهم على التحلق حول عليّ(عليه السلام) وترك الأكثرية؟

إننا نرى أ نّهم أناس أصوليون وعارفون بها، متدينون وعارفون بالدين. كانوا يقولون: إننا ينبغي ألاّ نستسلم في أفكارنا وادراكنا للآخرين لكيلا نخطيء إذا ما أخطأوا. لقد كانت روحيتهم ـ في الواقع ـ روحية تتحكم فيها الأُصول والحقائق، لا الأشخاص والشخصيات.

كان أحد أصحاب الإمام عليّ(عليه السلام) قد انتابه الشك في حرب الجمل. كان ينظر إلى الطرفين، ففي طرف يرى عليّاً(عليه السلام) ومعه كبار رجال الإسلام يضربون بسيوفهم في ركابه .وفي الطرف الآخر كان يرى زوجة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) الّتي قال الله فيها وفي زوجات النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) الأُخريات) :وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ)(٦) ويرى في ركابها طلحة، من طلائع المسلمين ومن أقدمهم سابقة في الإسلام، ومن أمهر الرماة، قدّم خدمات جلى للإسلام. ويرى الزبير، أسبق من طلحة اسلاماً، ذلك الرجل الّذي كان مع عليّ(عليه السلام)يوم السقيفة.

كان الرجل يزداد حيرة كلما أمعن في الفكر. ما جلية الأمر ياترى؟ فعليّ(عليه السلام) وطلحة والزبير من طلائع الإسلام والمضحين في سبيله، ومن أقوى حصونه المدافعة عنه. ولكنهم الآن يواجه بعضهم بعضاً، فأيهم أقرب إلى الحقّ؟ ما الّذي ينبغي له في مثل هذا الحال؟

لا شكّ أننا لا يجوز لنا أن نلوم هذا على حيرته تلك وتردده، فلعلنا لو كنا في ظروف مماثلة لتأثرنا بشخصيتي طلحة والزبير وماضيهما المجيد.

ولكننا اليوم إذنرى عليّاً(عليه السلام (وعمّاراً وأويساً القرني وغيرهم إلى جانب، ونرى عائشة والزبير وطلحة يواجهونهم في طرف آخر، لا ينتابنا الشك والتردد في القول بأنّ هذا الطرف الثاني هو الّذي يبدو عليه سيماء الجرم، أي إنّ آثار الجريمة والخيانة بادية في وجوههم، فبالنظر إلى وجوههم وملامحهم كان الرائي لا يخطيء في الحكم عليهم بأ نّهم من أهل النار.

أمّا لو كنا نعيش في ذلك الزمان ونرى سوابقهم قريبة منا، فلعله لم يكن من المستبعد أن نقع في تردد مماثل. إننا اليوم إذ نعرف أنّ الطرف الأوّل كان على حقّ والطرف الثاني على باطل، فلأننا بعد مضي الزمن، واتضاح الحقائق، ومعرفة عليّ(عليه السلام) وعمّار من جهة وطلحة والزبير وعائشة من جهة أُخرى استطعنا أن ندرك كنه الأُمور وأن نقضي بالحقّ. أو إننا إذا لم نكن من أهل الدرس والتحقيق، فإننا ـ في الأقل ـ قد لُقّنا بذلك منذ طفولتنا. أمّا في حينه، فإنّ هذين العاملين لم يكن لهما وجود.

على كلّ حال، جاء هذا الرجل إلى أميرالمؤمنين(عليه السلام) وقال له: «أيمكن أن يجتمع الزبير وطلحة

وعائشة على باطل؟» إنّ شخصيات من كبار صحابة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كيف يمكن أن يخطئوا ويسيروا في طريق الباطل؟

أمّا جواب عليّ(عليه السلام) فيصفه الدكتور طه حسين، الأديب والكاتب المصري، بقوله: إنّه قول لا أحكم منه ولا أرفع .فمنذ أن انطفأ الوحي وانقطع نداء السماء لم يسمع كلام عظيم كهذا(٧.(

قال عليّ(عليه السلام): «إنّك لملبوس عليك. إنّ الحقّ والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال. اعرف الحقّ تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله.«

فليس صحيحاً أن تتخذ من بعض الناس مقاييس لك، ثمّ تروح تقيس الحقّ والباطل عليهم، فتقول: إنّ العمل الفلاني حقّ لأنّ فلاناً وفلاناً وافقوه، وإنّ العمل الفلاني باطل لأنّ فلاناً وفلاناً خالفوه.. كلا، لا يجوز أن يجعل الأشخاص معايير للحقّ والباطل. بل إنّ الحقّ والباطل هما اللذان يجب أن يقاس عليهما الأشخاص. نعم، عليك أن تكون عارفاً بالحقّ والباطل، لا بالأشخاص والشخصيات، فتقيس الأفراد ـ سواء أكانوا كباراً أم صغاراً ـ وفق مقاييس الحقّ، فإن انطبقت عليهم تقبلتهم. وعندئذ لا يمكن أن يقال: هل إنّ عائشة وطلحة والزبير على باطل؟

هنا جعل عليّ(عليه السلام) الحقّ نفسه مقياساً للحقّ، وذلكم هو روح التشيع ولا شيء غيره. ففرقة الشيعة ـ في الواقع ـ قد ولدت من نظرة خاصة تعطي الأهمية للأُصول الإسلامية لا للأفراد والأشخاص. ولهذا كان لابدّ أن يتربى الشيعة الأوائل أُناساً نَقَدَة يحطمون الأصنام.

كان عليّ(عليه السلام) فتى في الثالثة والثلاثين من عمره عند وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، لا يتبعه إلاّ قلة يعدون على أصابع اليدين، وفي قبالة شيوخ في الستين مع الكثرة الكاثرة. كان منطق هذه الأكثرية هو أنّ هذا هو طريق المشايخ أو المشايخ لا يخطئون، وإننا لعلى أثرهم سائرون. أمّا الأقلية فكان منطقها يقول :إنّ ما لا يخطىء هو الحقّ، وعلى المشايخ أن يدوروا حيثما دار الحقّ.

من هذا يتضح أنّ الّذين يتخذون شعار التشيع شعاراً لهم، ولكن روحهم ليست روح التشيع، هم كثرة كثيرة. إنّ طريق التشيع ـ مثل روحه ـ طريق تمييز الحقّ واتّباعه. وإنّ من أهم آثار ذلك هو الجذب والدفع ـ لا كلّ جذب ولا كلّ دفع، فقد قلنا من قبل: إنّ بعض الجذب يكون جذب الباطل والجرم والمجرم، وبعض الدفع يكون دفع الحقّ والفضائل الإنسانية ـ إنّما نقصد جذباً ودفعاً على شاكلة ما لعليّ(عليه السلام)، فالشيعة تعني نسخة مطابقة لسيرة عليّ(عليه السلام)، فعلى الشيعة أن يكونوا مثل عليّ(عليه السلام (ـ أيضاً ـ يمتلكون قوتي

الجذب والدفع.

كانت هذه المقدمة لازمة لتبيان أن من الممكن أن يموت مذهب من المذاهب، ولكن تبقى روحه حية في أُناس آخرين هم بحسب الظاهر ليسوا من أتباع ذلك المذهب، بل قد يعتبرون أنفسهم من مخالفيه .إنّ مذهب الخوارج ميت اليوم. أي لا توجد على وجه الأرض ـ اليوم ـ فرقة دينية تطلق على نفسها اسم الخوارج ويتبعها عدد من الناس.

ولكن هل ماتت روح هذا المذهب أيضاً؟

ألم تحل هذه الروح في أتباع مذاهب أُخرى؟

أليس فينا ـ مثلا، والعياذ بالله ـ جمع من ذوي الجمود الديني حلت فيهم تلك الروح؟

هذا موضوع يلزمه بحث خاص به، فقد نستطيع أن نرد على هذا السؤال إن عرفنا مذهب الخوارج جيداً، وما قيمة البحث في الخوارج إلاّ من هذا الباب. علينا أن نعرف لماذا دفعهم عليّ(عليه السلام) عنه، أي لماذا لم تجذبهم قوة جاذبة عليّ(عليه السلام)، بل على العكس من ذلك، طردتهم قوة دافعته؟

إنّ الّذي لا شك فيه ـ كما سنعرف ذلك قريباً ـ هو أنّ العناصر الروحية الّتي أثرت في شخصية الخوارج وشكلت روحيتهم لم تكن كلها من تلك العناصر الّتي تؤثر فيها قوة دافعة عليّ(عليه السلام(، فقد كان فيها الكثير من العناصر المتميزة النيرة الّتي لولا اقترانها بعدد من النقاط المظلمة لوقعت تحت تأثير قوة جاذبة عليّ(عليه السلام .(ولكن الجوانب المظلمة في روحهم كانت من الكثرة والاتساع بحيث أ نّها وضعتهم في صف أعداء عليّ(عليه السلام.(

الخوارج وديمقراطية عليّ(عليه السلام(

لقد عامل عليّ الخوارج بمنتهى الحرية والديمقراطية. لقد كان خليفة وكانوا من رعاياه، فكان قادراً على أن ينفذ بحقهم ما كانوا يستحقونه. ولكنه لم يسجنهم ولم يجلدهم، بل إنّه لم يقطع حتّى نصيبهم من بيت المال، وكان ينظر إليهم نظرته إلى الآخرين.

ليس في هذا ما يدعو إلى العجب في سيرة حياة عليّ، إلاّ أ نّك قلما تجد نظيراً له في تاريخ العالم.

لقد كانوا أحراراً في الإعلان عن عقيدتهم أنى شاءوا. وكان الإمام عليّ وأصحابه يقابلونهم بمعتقداتهم بكلّ حرية، ويجادلونهم فيها ويتبادلون الأدلة والاستدلال.

لعل هذا القدر من الحرية لم يسبق له وجود في العالم. فما من حكومة عاملت معارضيها بهذا القدر من الديمقراطية. لقد كانوا يأتون إلى المسجد ويقطعون على عليّ(عليه السلام) خطبته كان علي(عليه السلام) يوماً على المنبر، فجاءه رجل يسأل سؤالا، فرد عليه عليّ(عليه السلام) الجواب فوراً. فصاح أحد الخوارج من الحاضرين: «قاتله الله، ما أفقهه!» فأراد الآخرون أن يلقوا عليه درساً في الأدب، فمنعهم عليّ(عليه السلام) قائلا: اتركوه، إنّه إنّما شتمني أنا.

لم يكن الخوارج يأتمون بعليّ(عليه السلام) في الصلاة، لأ نّهم كانوا يقولون بكفره، وإنّما كانوا يحضرون إلى المسجد ولا يصلّون خلفه، وكانوا أحياناً يؤذونه. كان عليّ(عليه السلام) يوماً يصلّى وقد ائتم به الناس. فقرأ أحد الخوارج ـ وهو ابن الكواء ـ بأعلى صوته:

)وَلَـقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَـيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَـتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ)(٨.(

كان ابن الكواء يريد بذلك أن يذكر عليّاً(عليه السلام) بأننا نعرف سوابقك في الإسلام، فقد كنت أول من أسلم، وقد آخى الرسول بينه وبينك، وضحيت بنفسك في ليلة المبيت إذ نمت في فراش النبيّ وعرضت نفسك للسيوف المشرعة، ولسنا ننكر خدماتك للإسلام، ولكن الله قال لرسوله أيضاً: إنّك لو أشركت لحبطت أعمالك، وبما أ نّك قد كفرت فقد أهدرت أعمالك تلك كلّها.

فما الّذي فعله عليّ(عليه السلام) بإزاء ذلك؟ ما أن ارتفع صوت الرجل بتلاوة القرآن حتّى سكت عليّ(عليه السلام) حتّى انتهى الرجل، فاستأنف عليّ(عليه السلام)الصلاة، فعاد ابن الكواء يكرر الآية، فسكت عليّ(عليه السلام) ثانية. كان عليّ(عليه السلام)يسكت لأ نّه حكم القرآن الّذي يقول :

)إِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا)(٩.(

ولهذا ينبغي على المأمومين السكوت عندما يتلو الإمام القرآن.

وإذا تكرر هذا من ابن الكواء، بقصد الإخلال بالصلاة، تلا الإمام هذه الآية:

)فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)(١٠). فسكت ابن الكواء ولم يعد(١١.(

قيام الخوارج وطغيانهم

اكتفى الخوارج في أوائل أمرهم بمجرد النقد والجدل الحر، وكان عليّ(عليه السلام) يقابلهم ـ كما قلنا ـ دون أن يتعرض لهم بسوء، ولم يقطع مرتباتهم من بيت المال. ولكنهم بعد أن يئسوا شيئاً فشيئاً من توبة

عليّ(عليه السلام)... بدلوا أسلوبهم وعزموا على الثورة. اجتمعوا في دار أحدهم حيث خطب فيهم صاحب الدار خطبة مثيرة، ودعا أصحابه إلى الثورة باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنر. وقد جاء في خطابه: »أمّا بعد، فو الله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن، أن تكون الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحقّ وإن مُنَّ وضُرَّ، فإنّه من يمن ويضر في هذه الدنيا فإنّ ثوابه يوم القيامة رضوان الله والخلود في جناته، فأخرجوا بنا ـ إخواننا ـ من هذه القرية الظالم أهلها إلى كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة»(١٢).

فزاد بأقواله هذه من أوار هيجانهم، فتحركوا معلنين التمرد والثورة، فقطعوا الطرق واتخذوا النهب والسلب حرفة(١٣ (كانوا يريدون بذلك إضعاف الحكم واسقاطه.

هاهنا لم يبق موضع للتغاضي وإطلاق الحرية، لأنّ المسألة لم تعد مسألة اظهار العقيدة، بل أصبحت إخلالا بأمن المجتمع وتمرداً مسلحاً على حكومة شرعية. لذلك فقد تعقبهم عليّ(عليه السلام (ولحق بهم عند شاطىء النهروان، فخطب فيهم ونصحهم وألقى عليهم الحجة، ثمّ أعطى راية الأمان بيد أبي أيوب الأنصاري وقال: من استظل بالراية كان في أمان، فرجع من الاثني عشر ألفاً ثمانية آلاف، وركب الباقون رؤوسهم عناداً، فهزموا شر هزيمة ولم يبق منهم سوى عدد معدود.

(1)ضحى الإسلام: ٣٣٠/٣ نقلا عن كتاب الفرق بين الفرق.

(2)ضحى الإسلام: ٣٣٢/٣.

(3)نهج البلاغة: الخطبة ٤٠ وشرح ابن أبي الحديد: ٣٠٨/٢.

(4)الكامل لابن الأثير.3/336 :

(5)الملل والنحل للشهرستاني.

(6)الأحزاب: ٦.

(7)عليّ وبنوه: ٤٠.

(8)الزمر: الآية ٦٥.

(9)الأعراف: ٢٠٤.

(10)الروم: ٦٠.

(11)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣١١/٢٩.

12)و ١٣) الإمامة والسياسة: ١٤١ ـ ١٤٣، الكامل للمبرد: ج ٢.

سِمات الخوارج

روحية الخوارج روحية خاصة. كانوا مزيجاً من القبح والجمال، وبلغ جماع أمرهم أ نّهم وقفوا في صفوف أعداء عليّ(عليه السلام)، فكان أنّ شخصية عليّ(عليه السلام) (دفعتهم) ولم (تجذبهم.(

إننا هنا نذكر الجانب الإيجابي الجميل عندهم، كما نذكر جانبهم السلبي القبيح الّذي جعل من روحيتهم في المجموع روحية خطرة، بل مرعبة.

1ـ الروحية المناضلة المضحية الّتي كانت تحملهم على الدفاع عن عقائدهم بكلّ شدة وصرامة. إننا نجد في تاريخ الخوارج حوادث من التضحية والفداء قل نظيرها في تاريخ البشر. وقد ربتهم روح التضحية ونكران الذات على الشجاعة والجرأة.

يقول عنهم ابن عبد ربّه:

»وليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج، ولا أشد اجتهاداً، ولا أوطن أنفساً على الموت. منهم الّذي طعن، فأنفذه الرمح، فجعل يسعى إلى قاتله ويقول: وعجلت إليك ربِّ لترضى»(١.(

أرسل معاوية شخصاً كان ابنه من الخوارج ليعيد هذا الابن إليه، فلم يستطع الأب ارجاع ابنه عن عزمه. وأخيراً قال له :أي بني، سأذهب لآتي لك بوليدك الصغير لعل حنان الأبوة يعيدك إليه. فقال الابن: والله إنّي لأشوق إلى الضربة الشديدة مني إلى ولدي(٢.(

2ـ كان الخوارج من المتعبدين المتنسكين، يمضون الليل في العبادة، لا تستميلهم الدنيا بزخارفها. عندما أرسل عليّ(عليه السلام) ابن عباس يوم النهروان ليبذل لهم النصح، عاد ابن عباس ووصفهم بقوله:

»لهم جباه قرحة لطول السجود، وأيد كثفنات الإبل، عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون»(٣.(

كان الخوارج متمسكين بأحكام الإسلام وظواهره أشد التمسك، يبتعدون عن كلّ ما كانوا يرونه إثماً. كانت لهم معاييرهم الخاصة الّتي كانت تمنعهم من اقتراف أي مخالفة، وكانوا ينفرون ممن يرتكب خطيئة. قتل زياد ابن

أبيه أحد الخوارج، ثمّ استجوب خادمه عنه، فقال: ما قدمت له طعاماً في النهار ولا فرشت له فراشاً في الليل، فقد كان صائماً نهاره وقائماً بالعبادة ليله(٤).

كل خطوة من خطواتهم كانت تنبع من العقيدة، وكانوا ملتزمين في جميع أفعالهم، وكانوا يسعون في نشر عقائدهم.

ولقد أوصى بهم عليّ(عليه السلام) فقال:

»لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ»(٥).

أي إنّهم يختلفون عن معاوية وصحبه، فالخوارج سعوا للوصول إلى الحقّ ولكنهم أخطأوا الطريق اليه، ولكن الآخرين كانوا منذ البداية مخادعين، ويسيرون في طريق الباطل. لذلك فقتلكم الخوارج ينفع معاوية وهو أسوأ من هؤلاء وأخطر.

قبل أن نواصل القول في سائر سمات الخوارج، وما دمنا في معرض الحديث عن زهدهم وتقواهم وتقدسهم، لابدّ من الإشارة إلى أنّ واحداً من جلائل أعمال الإمام عليّ(عليه السلام) ومن أعجبها وأبرزها في تاريخ حياته هو جرأته البالغة وشجاعته في كونه قد انبرى لمحاربة هؤلاء المتدينين الّذين غلب عليهم الجفاف والتحجر والجمود الفكري والغرور.

لقد شهر عليّ(عليه السلام) سيفه بوجه جماعة يرى الناس عليهم علائم الصلاح وملامح التقوى والتزهد بادية، خلقة ثيابهم، يقضون أوقاتهم متعبدين.

فلو كنا نحن من أصحاب عليّ(عليه السلام(، ورأيناه يشهر السلاح عليهم، لكانت مشاعرنا تثور، ولكنا نقف بوجهه معترضين، ولفعله منكرين.

إنّ من بين الدروس القيمة حقاً في تاريخ التشيع خصوصاً، وفي عالم الإسلام عموماً، هو قصة الخوارج هذه.

لقد كان عليّ(عليه السلام) يدرك كلّ الإدراك أهمية عمله ذاك وعظمه، وفي ذلك يقول:

»فَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا»(٦).

إنّ لعليّ(عليه السلام) في هذا القول تعبيرين عجيبين:

الأوّل: هو (غيهب الفتنة) أي ظلامها وشمولها وإثارتها للشك، فقد كان ظاهر الخوارج على درجة من القدسية والتقوى بحيث أ نّه كان يثير شك مؤمن نافذ الإيمان في صحة ما يقوم به عليّ(عليه السلام)، فكان

هذا يخلق جواً من الغموض والظلام والشبهة والتردد.

أمّا تعبيره الثاني: فهو قوله بما في تلك الفتنة من كَلَب (بالتحريك).. والكَلَب هو الجنون المرضي الّذي يصيب بعض الكلاب فتعض من تصادفه فتنقل إليه (مكروب) ذلك المرض المعدي.. ففي عضة الكلب يسري الميكروب من لعابه إلى دم الإنسان أو الحيوان، فلا يلبث المعضوض من يصاب بداء جنون الكلب نفسه، ويهاجم الآخرين ويعضهم، ناقلا المرض اليهم أيضاً. فماذا دام هذا طويلا كان من أخطر الأُمور. ولهذا فإنّ العقلاء لا يترددون في قتل الكلب المسعور ليجنبوا الآخرين خطره.

هكذا يصفهم الإمام عليّ(عليه السلام). إنّهم كانوا كالكلاب المسعورة الّتي لا ينفع فيها دواء. فكانوا لا يفتأون يعضون وينشرون البلاد فيزداد عدد المسعورين.

الويل للمجتمع الإسلامي إذا ظهر بينهم متدينون جافون جامدون جهلة لا يحيدون عن سبيلهم، فيندفعون يعضون هذا وذاك. فأي قدرة تستطيع أن تقف في وجوه هذه الأفاعي الّتي لا ينفع فيها سحر ولا حيلة؟ ما تلك الروح القوية الواثقة الّتي لا يصيبها الارتجاف أمام كلّ ذلك الزهد والتقوى؟ وأي يد لا ترتعش وهي ترفع السيف لتنزله على هامات هؤلاء؟

ولهذا يقول عليّ(عليه السلام): «وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي». إنّ أحداً من المسلمين المؤمنين بالله ورسوله والمعاد لم يكن ليجرأ على أن يشهر السيف في وجه هؤلاء، عدا عليّ(عليه السلام) ببصيرته النافذة وإيمانه المكين.

إنّ أمثال هؤلاء إنّما يجرؤ على قتلهم الّذين لا يعتقدون بالله وبالإسلام، لا المؤمنون الملتزمون من سائر الناس.

لذلك فإنّ عليّاً(عليه السلام) يفتخر بفعلته العظيمة قائلا: «فَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ» ودرأت عن المسلمين خطراً عظيماً كان قادماً إليهم مع هؤلاء المتدينين المتحجرين .فلا جباههم المتقرحة من أثر السجود، ولا ملابسهم الرثة وزهدهم، ولا ألسنتهم الدائمة الذكر لله، ولا حتّى إيمانهم الراسخ وثباتهم، لم تستطع أن تغيم على بصيرتي. فأنا وحدي الّذي أدركت أ نّي إن تركت هؤلاء يوطدون أقدامهم فإنّهم سيصيبون الآخرين بدائهم، ويجرون عالم الإسلام إلى التمسك بالظواهر والقشور وبالجمود الفكري والتحجر العقلي، حتّى يقصموا ظهر الإسلام. ألم يقل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «اثنان قصما ظهري: عالم متهتك وجاهل متنسك.« عليّ(عليه السلام) يريد أن يقول: لو لم أقم أنا بمحاربة الخوارج في دنيا الإسلام، لما تجرأ أحد بعدي على

القيام بذلك، إذ ما كان أحد غيري يستطيع أن يرى فريقاً من الناس ثفنت جباههم من كثرة السجود، وسلكوا مسالك المتدينين، وهم في الوقت نفسه سر في طريق الإسلام.. أُناساً يحسبون أ نّهم يعملون في سبيل الإسلام، ولكنهم في الواقع من أعداء الإسلام، ثمّ ينهض لمحاربتهم ويريق دماءهم.. أنا فعلت هذا.

لقد مهد عليّ(عليه السلام) بعمله ذاك الطريق أمام الخلفاء والحكام من بعده، فأقدموا على محاربتهم وإراقة دمائهم، بغير أن يعترض الجنود على ذلك، على اعتبار أنّ عليّاً قد فعل ذلك من قبل.

إنّ سيرة عليّ(عليه السلام) ـ في الحقيقة ـ قد فتحت الطريق للآخرين لكي يتمكنوا من مجالدة أُناس ظاهري الصلاح والتقوى، ولكنهم في الواقع حمقى جامدون.

3ـ كان الخوارج جهلة، فكان من تأثير جهلهم ذاك أ نّهم لم يكونوا يدركون حقائق الأُمور ويسيؤون التفسير. ومن ثمّ تشكل اعوجاج الفهم عندهم بالتدريج بصورة مذهب ديني، بحيث أ نّهم لم يبخلوا بأعظم التضحيات في سبيل تثبيته. وفي البداية أظهروا تمسكهم بالفريضة الإسلامية (النهي عن المنكر) كأ نّهم فريق لا هدف لهم سوى إحياء تلك الفريضة الإسلامية.

هنا ينبغي علينا أن نتريث قليلا لنمعن النظر ملياً في جزء من التاريخ الإسلامي.

عندما نرجع إلى السيرة النبوية نرى أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) خلال فترة بقائه في مكة مدة ثلاث عشر سنة لم يجز لأحد الجهاد، ولا حتّى الدفاع، بحيث أن المسلمين أحسوا بالضيق من ذلك، وهاجر جمع منهم إلى الحبشة بإذن من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولكن الآخرين مكثوا وتحملوا العذاب حتّى وافت السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، فأجاز رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الجهاد.

خلال فترة مكة تلقى المسلمون التعاليم، وتعرفوا على روح الإسلام، فنفذت الثقافة الإسلامية إلى أعماقهم، فكانت النتيجة أ نّهم عند دخولهم المدينة كان كلّ منهم داعية من دعاة الإسلام الصادقين، فكان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)يرسلهم إلى الأطراف والأكناف فيؤدون واجبهم على خير وجه، وإذا ما اشتركوا في الجهاد كانوا يعلمون ما هي الأهداف والمثل الّتي يحاربون من أجلها، فكانوا كما قال عنهم عليّ(عليه السلام:(»وحملوا بصائرهم على أسيافهم»(٧.(

إنّ تلك السيوف المسقاة، وأُولئك النفر المتعلمون، هم الّذين استطاعوا أن يؤدوا رسالة الإسلام. عندما نقرأ التاريخ ونستمع إلى أقوال أُولئك الّذين لم يكونوا إلى ما قبل ذلك بسنوات يعرفون شيئاً غير السيف والبعير، فإننا ليأخذنا العجب وتنتابنا الحيرة لدى اصدامنا بثقافتهم الإسلامية وعلو تفكيرهم.

من المؤسف أ نّه في عهد الخلفاء كان الاهتمام منصباً ـ أكثر ـ على الفتوحات، غافلين عن أنّ عليهم ـ بموازاة فتحهم أبواب الإسلام بوجوه الآخرين واستقبالهم في الإسلام ممن كان يجذبهم التوحيد في الإسلام والعدل والمساواة بين العرب والعجم أن يعلموهم الثقافة الإسلامية لكي يتعرف الناس على روح الإسلام عن كثب.

كان الخوارج من العرب في الغالب وفيهم أفراد قلائل من غير العرب. ولكنهم جميعاً، بعربهم وغير عربهم، كانوا يجهلون الثقافة الإسلامية، وكانوا كمن يريد أن يستعيض عما فيه من منقصة بالتشدد في الركوع والسجود والإطالة فيهما. وبهذا يصفهم عليّ(عليه السلام) فيقول:

»جُفَاةٌ طَغَامٌ، وعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِّعُوا مِنْ كُلِّ أَوْب، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْب، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلاَ مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤا الدَّارَ«(٨.(

إنّ ظهور طبقة من المتدينين الجهلة، الّذين كانوا الخوارج جزءاً منهم، قد كلف الإسلام غالياً. فبغض النظر عن الخوارج الّذين كانوا ـ مع عيوبهم ـ يتحلون بالفضيلة والشجاعة والتضحية، ظهر من هؤلاء فريق من المتنسكين الّذين خلوا حتّى من تلك الفضائل، فأخذوا يجرون الإسلام نحو الرهبانية والإنزواء، وروجوا سوق التظاهر والرياء. ولما كان هؤلاء تعوزهم تلك الشجاعة الّتي تدفع بهم إلى اشهار السيف على أصحاب السلطة، سلّوا سيف اللسان على أرباب الفضيلة، فراحوا يلصقون تهمة الكفر والفسق واللادينية بكلّ صاحب فضيلة.

على كلّ حال، فإنّ من أبرز سمات الخوارج هو الجهل. من جملة جهلهم عدم التفكيك بين ظاهر القرآن وباطنه، أي بين خط القرآن وجلده وبين معناه. ولهذا انخدعوا بحيلة معاوية وعمرو بن العاص الواضحة. لقد امتزجت (الجهالة والعبادة) في هؤلاء. فكان عليّ(عليه السلام) يريد أن يحارب جهالتهم، ولكن لم يكن بالإمكان فصل جانب الزهد والتقوى والعبادة في هؤلاء عن جانب الجهل فيهم. بل إنّ عبادتهم كانت هي الجهالة بعينها. فقد كانت العبادة المصحوبة بالجهالة، في نظر عليّ(عليه السلام) العَالِم بالإسلام علماً من الطراز الأوّل، لا قيمة لها، لذلك فقد ضربهم، ولم تستطع ملامح الزهد والتقوى والعبادة فيهم أن تمنع عنهم عليّاً(عليه السلام.(

إنّ خطر جهل أمثال هؤلاء الأفراد والجماعات أكثر من مجرد الوقوع كآلات بيد الأذكياء الّذين يريدونهم حجر عثرة في طريق المصالح الإسلامية العليا. إنّ المنافقين الّذين لا دين لهم يسعون دائماً لاستشارة المتدينين

الحمقى ضد المصالح الإسلامية، فيصبحون سيوفاً بأيديهم وسهاماً في أقواسهم.

وما أدق الوصف الّذي يصف به عليّ(عليه السلام (هذه الحالة فيهم إذ يقول:

»ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ!»(٩.(

قلنا: إنّ الخوارج بدأوا بهدف احياء سنّة إسلامية، إلاّ أنّ جهلهم وعدم تبصرهم أوصلهم إلى ما وصلوا اليه، فأخطأوا في تفسير القرآن، فأدى هذا إلى تفردهم في مذهب معين وإلى سلوكهم مسلكاً خاصاً. لقد جاء في القرآن:

)قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الحُكْمُ إلاّ لِلّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ)(١٠.(

)الحكم) في هذه الآية لله، ولكن لابدّ من معرفة ما هو المراد بالحكم.

لاشك أنّ المراد بالحكم هنا هو القوانين والأنظمة الّتي تحكم حياة البشر. هذه الآية لا تعطي حقّ وضع القوانين لأحد سوى الله، فذلك من الشؤون الخاصة بذات الله (أو بمن يمنحه الله صلاحيته.(

ولكن الخوارج اعتبروا الحكم بمعنى الحكومة والحَكَمية، وصنعوا في ذلك شعاراً لهم وقالوا: لا حكم إلاّ لله. قاصدين بذلك إلى القول بأن الحكومة والحكمية والقيادة لله وحده، كما أنّ لله وحده حقّ وضع الأحكام والقوانين، وأن ليس لأحد غير الله أن ينصب نفسه حكماً أو حاكماً بين الناس، مثلما ليس لأحد غير الله أن يسن قانوناً.

لذلك كانوا إذا رأوا الإمام عليّاً واقفاً يصلي أو خطيباً على المنبر، نادوا بأعلى أصواتهم: لا حكم إلاّ لله، لا لك ولأصحابك يا عليّ.

فكان يرد عليهم بقوله:

»كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلاَّ للهِ، ولكِنَّ هؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ إلاّ الله، وأَ نَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِير بَرّ أَوْ فَاجِر، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِر»(١١.(

أي إنّ القانون لا يجري بنفسه، بل لابدّ من فرد أو جماعة تقوم بإجرائه وتنفيذه.

4- كان الخوارج أُناساً قصيري النظر ضيقيه، يدور فكرهم في أُفق دون. كانوا يحصرون الإسلام والمسلمين

في اطار ضيق محدود من الأفكار. كانوا ـ مثل غيرهم من قصيري النظر ـ يزعمون أنّ الجميع لا يفهمون جيداً، أو لا يفهمون إطلاقاً، وأ نّهم قد تجنبوا طريق الصواب فأصبحوا جميعاً من أهل النار.

إنّ أول ما يفعله قصيرو النظر كهؤلاء هو أ نّهم يصبغون ضيق نظرهم هذا بصبغة العقيدة الدينية، ويحددون رحمة الله، ويجلسون الله على كرسي الغضب دائماً وكأ نّه ينتظر من عباده أتفه زلة ليعذبهم عذاباً أبدياً.

إنّ واحداً من أُصول عقائد الخوارج هو أن مرتكب الكبيرة ـ كالكذب والغيبة وشرب الخمر ـ كافر وخارج عن الإسلام ويستحق الخلود في النار. وعليه فإنّ جميع الناس ـ عدا نفر منهم ـ مخلدون في نار جهنم.

إنّ ضيق النظرة الدينية من سمات الخوارج، ولكننا اليوم نصادف هذه السمة في المجتمع الإسلامي على الرغم من انقراض الخوارج. وهذا هو الّذي قصدنا إليه بقولنا: إنّ الخوارج قد مات شعارهم، إلاّ أنّ روح مذهبهم ما يزال حياً إلى حد ما بين بعض الناس والطبقات.

إننا نرى بعضاً من ذوي الأدمغة الجافة يعتبرون جميع الناس ـ باستثناء أنفسهم ونفر معدود منهم ـ من الكفار والملحدين، ويحددون دائرة الإسلام والمسلمين بأضيق الحدود.

قلنا في الفصل السابق: إنّ الخوارج كانوا يجهلون روح الثقافة الإسلامية. ولكنهم كانوا يتصفون بالجرأة. وقد أدى بهم جهلهم ذاك إلى أن يكونوا ضيقي النظر، وهذا بدوره حملهم على التسرع في تكفير الناس وتفسيقهم بحيث أ نّهم حصروا الإسلام بأنفسهم فقط، واعتبروا سائر المسلمين ـ الّذين لم يكونوا يرتضون عقائدهم ـ كفاراً. وكان من جرأتهم أ نّهم كانوا يقصدون أرباب السلطة لكي يأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، معرضين أنفسهم للقتل.

ثم قلنا: إنّ جمودهم الفكري وتنسكهم وتقدسهم وضيق نظرتهم بقي بعدهم إرثاً للآخرين بغير أن يبقى معه شيء من جرأتهم وشجاعتهم وتضحياتهم.

فكان أن ظهر الخوارج الجبناء، أي أولئك المتقدسون الّذين تركوا السيوف في أغمادها، وتخلوا عن فكرة تقصد رجال السلطة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأ نّها كانت خطراً عليهم، ولكنهم راحوا يسلقون رجال الفضل والفضيلة بألسنة حداد، فألصقوا بكلّ صاحب فضل تهمة من التهم، بحيث أننا قلما نجد أحد الفضلاء في تاريخ الإسلام ممن لم يتخذه هؤلاء الخوارج هدفاً لسهام اتهاماتهم: فهذا ينكر وجود الله، وذاك ينكر المعاد، وآخر ينكر المعراج الجسماني، والرابع صوفي، والخامس كذا... الخ...

ولو أننا أخذنا بأقوال هؤلاء لما وجدنا بين أظهرنا أي عالم إسلامي حقيقي، فعندما يكفّرون عليّاً(عليه السلام (

فاقرأ على الآخرين السلام، فابن سينا، والخواجة نصير الدين الطوسي، وصدر المتألهين الشيرازي، وفيض الكاشاني، والسيد جمال الدين الأسدآبادي، وحتّى محمّد اقبال الباكستاني، هم ممن تجرعوا جرعة من كأس هؤلاء.

وفي هذا يقول ابن سينا ما ترجمته:

)تكفير شخص مثلي ليس سهلا جزافاً *** فلا إيمان أقوى من إيماني(

)أنا نسيج وحدي في الدهر، فإن أكن كافراً *** فما عاد في الدهر مسلم أبداً(

ويقول نصيرالدين الطوسي الّذي كفره عالم اسمه)نظام العلماء) ما ترجمته:

)لئن كفرني نظام بلا نظام *** فإن سراج الكذب لا ضياء له(

ولكني سوف أدعوه مسلماً *** لأنّ جواب الكذب كذب مثله(

على كلّ حال، لقد كان من سمات الخوارج البارزة ضيق أفقهم وقصر نظرهم، مما دعاهم إلى الحكم على الآخرين بالكفر والإلحاد.

لقد فند الإمام عليّ(عليه السلام) مزاعمهم هذه، وقال: إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقيم الحد على المذنب ثمّ يصلّي على جنازته، فلو كان مرتكب الكبيرة كافراً لما صلّى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على جنازته، لأنّ الصلاة على جنازة الكافر غير جنائزة نهى القرآن عن ذلك:

)وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)(١٢.(

»وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) رَجَمَ الزَّانِيَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ ; فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ»(١٣.(

يقول: لنفرض أنني قد أخطأت فكفرت، فلماذا تكفّرون جميع المسلمين؟ إذا ضل أحد وأخطأ فهل ينسحب ذلك على الآخرين فيدخلهم في زمرة الضالين المخطئين الّذين يستحقون العقاب؟ لماذا تسلطون سيوفكم على رقاب المذنبين ـ على حدا زعمكم ـ وغير المذنبين معاً؟

إنّ الإمام يأخذ عليهم وجهين من وجوه النقد، فتدفعهم دافعته عنه من اتجاهين:

الأوّل: إنّهم يحملون البريء ذنب المجرم ويعاقبونه على ذلك.

والثاني: إنّهم يكفرون من يرتكب ذنباً ويخرجونه من إسلامه، فيضيقون بذلك دائرة الإسلام بحيث أنّ من يضع قدمه خارج عدد من التعاليم فقد خرج عن الإسلام.

يدين الإمام عليّ(عليه السلام) فيهم ضيق الأُفق وقصر النظر. والواقع أنّ حرب عليّ(عليه السلام) على الخوارج لم تكن حرباً على أفراد، بل كانت حرباً على طراز خاص من التفكير، إذ لو لم يفكر أُولئك الأفراد على هذه الشاكلة لما عاملهم عليّ(عليه السلام) تلك المعاملة. إنّه قتلهم ليقتل أفكارهم، ولكي يفهم القرآن على حقيقته، ولكي يرى المسلمون الإسلام والقرآن كما هما وكما يريده لهما واضع قوانينهما.

إنّ قصر نظرهم واعوجاج تفكيرهم هما اللذان سهلا لخدعة رفع المصاحف أن تنطلي عليهم، وخلقوا من أنفسهم أعظم خطر على الإسلام، إذ منعوا عليّاً من أن يستأصل جذور النفاق إلى الأبد بالقضاء على معاوية وأفكاره قضاءً مبرماً، فكان ما كان بعد ذلك من الأحداث الفاجعة الّتي انصبت على المجتمع الإسلامي(١٤).

لم يكن الخوارج يرون سائر المسلمين مسلمين بسبب قصر نظرهم، فحرّموا ذبائحهم، وأهدروا دماءهم، ولم يتزاوجوا معهم.

سياسة رفع المصاحف

إن سياسة (رفع القرآن على الرماح) ما زالت رائجة بين المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً. وعلى الأخص كلما كثر المتقدسون والمتظاهرون وراجت سوق التظاهر بالزهد والتقوى، وكثر من ناحية أُخرى المستفيدون من سياسة رفع المصاحف. فالدروس الّتي يجب أن نستخلصها من ذلك هي:

أ ـ الدرس الأوّل: هو أ نّه حينما يعتبر الناس الجهال والمغفلين أ نّهم هم الّذين يمثلون التدين والتقوى، ويتخذونهم نماذج للإسلام فعلا، يصبح هؤلاء أداء طيعة بيد الأذكياء النفعيين، فيتخذونهم سداً منيعاً ضد المصلحين الحقيقيين وأفكارهم.

وكثيراً ما لوحظ أنّ العناصر المناوئة للإسلام تستغل هذه الأداة، أي إنّها توجه قدرة الإسلام نفسه ضد الإسلام.

إنّ الاستعمار الغربي جرب هذه الوسيلة مرات عديدة، وما يزال يستغلها لتحريك أحاسيس المسلمين الكاذبة لغرض ايجاد التفرقة بين المسلمين لمصلحته الخاصة.

ما أشده مدعاة للعار أن ينبري مسلم مخلص لطرد الأجانب، مثلا، والتخلص من نفوذهم، فيقوم أُولئك الّذين

يريد إنقاذهم باختلاق الذرائع والحجج الدينية لوضع سد قوي أمامه! نعم، إذا كان سواد الناس جاهلا وغافلا، فإنّ المنافقين يستغلون خنادق الإسلام نفسها لمحاربة الإسلام.

ففي إيراننا هذه حيث يفتخر الناس بمحبة آل البيت الأطهار(عليهم السلام)، يقوم المنافقون باستغلال اسم أهل البيت المقدس، ويتخذون من (الولاء لآل البيت) المقدس خندقاً يحاربون منه القرآن والإسلام وآل البيت لمصلحة اليهود الغاصبين. وهذا أفظع أنواع الظلم بحقّ الإسلام والقرآن والنبيّ الكريم وأهل بيته الكرام.

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم:(

»إنّي ما أخاف على أُمتي الفقر، ولكن أخاف عليهم سوء التدبير.«

ب ـ الدرس الثاني: هو أنّ علينا أن نسعى لكي تكون استنباطاتنا من القرآن صحيحة. فالقرآن لا يكون هادياً ومرشداً إلاّ إذا صح تدبره، وصدق تفسيره، واسترشد بهداية آل القرآن الراسخين في علوم القرآن. فما لم يكن أُسلوب استنباطنا من القران صحيحاً، وما لم نتعلم طريقة الاستفادة من القرآن، لا يمكن أن ننتفع به. إنّ النفعيين أو الجهّال قد يقرأون القرآن ولكنهم يسيرون وراء الاحتمال الباطل. لقد سمعتم قول (نهج البلاغة) في أنّ كلمتهم (كلمة حقّ أُريد بها باطل) فهذا ليس إحياء للقرآن وعملا به، بل هو إمانة القرآن. إنّ العمل بالقرآن لا يكون إلاّ عندما نفهمه فهماً صحيحاً.

إنّ القرآن يعرض الأُمور عرضاً كلياً ومبدئياً، ولكن الاستنباط وتطبيق الكلي على الجزئي لا يكون إلاّ بفهمنا إيّاه فهماً صحيحاً. فمثلا، لم يذكر في القرآن أنّ الحرب الفلانية الّتي سوف تقع بين عليّ(عليه السلام). إنّ كلّ ما جاء في القرآن هو:

)وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللّهِ)(١٥.(

هذا هو القرآن وأُسلوب بيان القرآن. إنّه لا يقول: إنّ الحقّ مع فلان في الحرب الفلانية، وإنّ فلاناً على باطل. إنّ القرآن لا يذكر الأسماء والأفراد. إنّه لا يقول بعد أربعين سنة أو أكثر أو أقل سوف يظهر رجل اسمه معاوية ويحارب عليّاً(عليه السلام)، فعليكم أن تحاربوا مع عليّ(عليه السلام). إنّ القرآن لا يدخل في التفاصيل ولا يعدد الحوادث ولا يضع اصبعه على الحقّ والباطل.

ليس هذا بالإمكان، فقد جاء القرآن ليبقى دائماً وأبداً، فليس عليه إلاّ أنّ يبين الأُصول والكليات بحيث أ نّه كلما تقابل حقّ وباطل في أي عصر من العصور استطاع الناس أن يعملوا ـ وفق مقاييس تلك الكليات والأُصول ـ

أنّ الأمر يعود إلى الناس لكي يفتحوا عيونهم ليروا ما ينبغي أن يفعلوه وفق مبدأ (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...) فيميزوا الفرقة الباغية من غير الباغية، وإذا ما فاءت الباغية إلى أمر الله قبلوا منها ذلك، وإذا ركبت رأسها وتحايلت لإنقاذ نفسها من السقوط لكي تتحين فرصة أُخرى للهجوم وتبغي مرة أُخرى، وتتظاهر بقبول القول (فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) فلا تنخدعوا بمكرها.

إنّ التعرف على كلّ هذا يعود إلى الناس أنفسهم .إنّ القرآن يريد للمسلمين الرشد العقلي والاجتماعي، لكي يستطيعوا أن يميزوا بين رجل الحقّ ورجل الباطل. إنّ القرآن لم يأت لكي يبقى دائماً بالنسبة للناس كولي على القاصرين فيعاملهم كما يعامل الولي الصغير القاصر، فيدبر أُموره الصغيرة ضمن قيموميته، ويعين له ما يفعل في كلّ حالة من الحالات.

إنّ معرفة الأشخاص ودرجة صلاحيتهم ولياقتهم ومدى تمسكهم بالإسلام وبالحقائق الإسلامية إنّما هي ـ من حيث المبدأ ـ واجب، ولكننا غالباً ما نغفل عن هذا الواجب الخطير.

يقول عليّ(عليه السلام:(

»إِنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ»(١٦). أي إنّ معرفة الأُصول والكليات لا تنفع وحدها حتّى تطبق على مصاديقها ومفرداتها، إذ يمكن بالخطأ في معرفة الأشخاص وبعدم إدراك الموقف أن تعملوا باسم الحقّ وباسم الإسلام وتحت الشعارات الإسلامية، ما هو ضد الإسلام، وما هو ـ في الحقيقة ـ لمصلحة الباطل. لقد ذكر القرآن الظلم والظالم والعدل والحقّ، ولكن ينبغي معرفة مصاديقها بحيث لا نرى الظلم عدلا، والعدل ظلماً، ومن ثمّ نقضي على العدالة والحقّ ونحن نحسب أننا نطبق الكليات بحكم القرآن.

ضرورة محاربة النفاق

إنّ من أشق الأُمور محاربة النفاق، لأننا في الحقيقة نحارب الأذكياء الّذين يستغلون أولئك الحمقى. إنّ هذه الحرب أصعب من محاربة الكفر أضعافاً، لأنّ محاربة الكفر حرب مكشوفة وظاهرة لا خفاء فيها، أمّا الحرب مع النفاق فإنّها حرب مع الكفر المستور.

إنّ للنفاق وجهين، وجه ظاهر هو الإسلام، ووجه باطن هو الكفر. إنّ معرفة ذلك من أشق الأُمور على عامة الناس، وقد لا يكون ممكناً لهم، ولذلك فإنّ الكفاح ضد النفاق كثيراً ما يؤول إلى الإخفاق، لأنّ العامة لا يتعدى شعاع إدراكهم الظاهر، فلا يضيء الباطن الخفي لأ نّه ليس بعيد الغور ولا ينفذ إلى الأعماق.

يقول الإمام عليّ(عليه السلام) في رسالته إلى محمد بن أبي بكر:

»وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم): «إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلاَ مُشْرِكاً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ، لكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ»(١٧).

هنا يعلن رَسُول اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم (يعلن الخطر من جهة النفاق والمنافقين، وذلك لأنّ عامة أفراد الأُمة غافلون وتخدعهم الظواهر(١٨).

ولابدّ من القول أ نّه كلما كثر عدد الحمقى كانت سوق النفاق أكثر رواجاً. إنّ المبارزة مع الأحمق والحماقة مبارزة مع النفاق أيضاً، لأنّ الأحمق آلة بيد المنافق، إذ لا ريب في أنّ مكافحة الحماقة والحمقى يعتبر نزع سلاح المنافق وتركه أعزل.

عليّ(عليه السلام) الإمام والقائد الحقّ

إنّ كيان عليّ(عليه السلام) برمته، وتاريخه وسيرته، وأخلاقه، وصبغته وريحه، وكلماته وأقواله، كلها دروس وتعاليم ونماذج للإقتداء وللقيادة.

وكما أنّ جواذب عليّ(عليه السلام) تعتبر دروساً تعليمية لنا، فإنّ قوة دفعه كذلك أيضاً. إننا في الأدعية الّتي نتلوها عند زيارة مرقد الإمام عليّ(عليه السلام)وسائر الأئمّة الأطهار ونردد أننا نحب محبيهم ونعادي أعداءهم. إنّ التفسير الآخر لهذا القول يشير إلى أننا نتوجه إلى حيث مدار جوّك الجاذب، ونبتعد عن مدار قوتك الدافعة.

إنّ ما قلناه في المواضيع السالفة تناول جانباً من قوى الجذب والدفع عند عليّ(عليه السلام)، وقد اختصرنا الكلام على دافعته خصوصاً، ولكن تبين مما قلناه أنّ عليّاً قد دفع عنه طبقتين اثنتين دفعاً شديداً:

1- المنافقين الأذكياء.

2- الزهاد الحمقى.

إنّ هذين الدرسين يكفيان مدعي التشيع ليحملاهم على فتح أعينهم لئلا ينخدعوا بالمنافقين. على أبصارهم أن تكون حديدة فتتجاوز النظر إلى الظاهر، فمجتمع التشيع والعصر الحاضر قد ابتلى بهذين الداءين أشد ابتلاء.

والسلام على من اتبع الهدى

(1)فجر الإسلام: ٢٦٣ نقلا عن العقد الفريد.

(2)فجر الإسلام: ٢٤٣.

(3)العقد الفريد: ٣٨٩/٢.

(4)الكامل للمبرد: ١١٦/٢.

(5)نهج البلاغة: الخطبة ٦.

(6)نهج البلاغة: الخطبة 92.

(7)نهج البلاغة: الخطبة 148.

(8)نهج البلاغة: الخطبة 236.

(9)نهج البلاغة: الخطبة 125.

(10)الأنعام: ٥٧.

(11)نهج البلاغة: الخطبة 40.

(12)التوبة: ٨٤.

(13)نهج البلاغة: الخطبة 125.

(14)إنّ أهم الأحداث الفاجعة الّتي حلت بالمسلمين على أثر ذلك هي الضربات الروحية والمعنوية نزلت بالمسلمين. لقد أقام القرآن الدعوة للإسلام على التبصر والتفكير، وهو الّذي فتح باب الاجتهاد والإدراك العقلي للناس :

)فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَة مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ (التوبة: ٩.

إنّ الإدراك البسيط لأمر من الأُمور لا يسمى (تفقهاً). إنّما التفقه هو الإدراك بإعمال التفكير والتعمق والتبصر:(إِنْ تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً) الأنفال: ٢٩.

)وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ) العنكبوت: ٢٩.

في مقابل هذا الأسلوب في التعاليم القرآنية الّتي كانت تريد أن يظل الفقه الإسلامي دائم الحركة والحياة، اختار الخوارج الجمود والركود، فحسبوا المعارف الإسلامية ميتة راكدة، وأدخلوا في

الإسلام الصورة والظاهر.

إنّ الإسلام لم يعن بالشكل والصورة والظاهر في الحياة أبداً، بل كلّ عنايته تتجه نحو الروح والمعنى، وهو طريق يوصل إلى تلك الأهداف والمعاني. إنّ الإسلام يضع رسم المعاني والأهداف وطريقة الوصول إليها ضمن إطار حكمه، ويترك الإنسان حراً فيما عدا ذلك، فيتجنب بذلك كلّ تصادم مع انتشار الثقافة والتمدن.

اننا لا نجد في الإسلام وسيلة مادية وشكلا ظاهرياً له صبغة من (التقديس) بحيث يجد المسلم نفسه ملزماً بالتمسك بذلك الشكل والظاهر.. لذلك، فإنّ تجنب التعارض مع مظاهر التوسع العلمي والحضاري يعتبر واحداً من الأُمور الّتي تجعل من السهل اليسير انطباق هذا الدين على مقتضيات الزمان، وتزيل أكبر مانع يحول دون خلوده مدى الدهر.

هذا هو نفسه التمازج بين التعقل والتدين، فهو من جانب يحافظ على تثبيت الأُصول وتمكينها، وهو من جانب آخر يفصلها عن الشكل، ويعطي الكليات الّتي قد تكون لها مظاهر متعددة، إلاّ أنّ تلك المظاهر لا تغير من الحقيقة شيئاً. بيد أنّ تطبيق الحقيقة على المظاهر والمصاديق ليس أمراً سهلا يقدر عليه كلّ من هب ودب، بل هو يتطلب إدراكاً عميقاً وفهماً سليماً. أمّا الخوارج فقد كانوا من ذوي الأفكار الجامدة، وما كان لهم عون على إدراك ما وراء ما يسمعون لذلك عندما أرسل عليّ(عليه السلام) ابن عباس ليحاججهم، أوصاه قائلا :

»لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون. ولكن حاججهم بالسنّة فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً.«

أي أنّ القرآن يعنى بالكليات، فهم في مقام الاحتجاج قد يستشهدون بآية يعتبرونها مصداقاً لما يقولون، وتستدل أنت بآية أُخرى دليلا على ما تقول، وهذا ما لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة من الجدل، فهم لا يملكون ذلك القدر من الإدراك الّذي يمكنهم من استخلاص شيء من حقائق القرآن وتطبيقها على مصاديقها الحقيقية الصحيحة. بل كلمهم حسبما جاء في السنّة لأ نّها تشمل الأجزاء وهي صريحة في مصاديقها.

وهذه إشارة من الإمام(عليه السلام) إلى جمود الخوارج وجفاف عقولهم مع تدينهم، الأمر الّذي يشير إلى إمكان انفصال التعقل عن التدين.

إنّ الجهالة والجمود الفكري هما اللذان أنجبا بالخوارج، فكانوا خلواً من القدرة على التحليل وعلى فصل الفكر عن المصداق.

ظنوا أ نّه إذا أخطأ التحكيم مرة فإنّ أساسه باطل وغير صحيح، مع أنّ من الممكن أن يكون ذلك الأساس ثابتاً وصحيحاً، وأنّ الخطأ قد وقع في التطبيق. لذلك فإنّنا نلاحظ في قضية التحكيم مراحل ثلاثاً:

1- يشهد التاريخ أنّ عليّاً لم يرض بالتحكيم، فقد أدرك أنّ عرض معاوية وأصحابه إنّما هو)مكيدة) و (غدر) وقد أصرعلى رأيه هذا.

2- كان يقول إنّه إذا كان لابدّ من تشكيل لجنة للتحكيم، فإنّ أبا موسى رجل ضعيف الحيلة والتدبير ولا يصلح لهذا الأمر، فلابدّ من اختيار الرجل الصالح، وقد رشح للاضطلاع بالمهمة أبي عباس أو مالكاً الأشتر.

3- أصل التحكيم صحيح وليس خطأ. وهذا ما أصر عليه عليّ(عليه السلام) أيضاً.

يقول أبو العباس المبرد في)الكامل في اللغة والأدب) ١٣٤/٢ ما خلاصته: لقد جادل عليّ(عليه السلام) الخوارج بنفسه، وحلّفهم أ نّه كان هو أشدهم معارضة للتحكيم، فأيدوا قوله.

فقال لهم: ألم تحملوني على القبول؟ فقالوا: اللّهمّ بلى.

فقال: لماذا إذن تخالفوني؟ فقالوا: لقد اقترفنا ذنباً عظيماً فكان لابدّ من التوبة، فتبنا، فتب أنت أيضاً.

فقال: أستغفر الله من كلّ ذنب. فعاد الجمع وهم من ستة آلاف نفر، وقالوا: لقد تاب عليّ، وها نحن ننتظر أمره بالتحرك نحو الشام.

فجاءه أشعث بن قيس وقال :يقول الناس: إنّك ترى التحكيم ضلالا والتزامه كفراً. فقام الإمام وصعد المنبر وقال: من يظني رجعت عن التحكيم فقد أخطأ الظن، ومن يراه ضلالا فهو أضل سبيلا. فقام الخوارج وغادروا المسجد وثاروا على عليّ(عليه السلام.(

يقول الإمام عليّ(عليه السلام): إنّ هذا التحكيم كان خطأً لأنّ معاوية وأصحابه كانوا يريدون المكر والتوسل بالحيلة، ولأنّ أبا موسى لم يكن على قدر المهمة، وقلت لكم هذا منذ البداية فرفضتم، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ التحكيم إجراء باطل.

* * *

لم يكن الخوارج يعترفون بوجود فرق بين حكومة القرآن وحكومة الأفراد. إنّ قبول حكومة القرآن يعني اتباع ما يقول به القرآن فيما يحدث من حوادث. إلاّ أنّ قبول حكومة الأفراد يعني اتباع آراء أُولئك الأفراد وأحكامهم ونظرياتهم، وبما أنّ القرآن لا يتكلم، فلابدّ من استنباط حقائقه بإعمال النظر والفكر، وهذا ما لا يكون إلاّ عن طريق الأفراد. وفي هذا يقول الإمام عليّ(عليه السلام) نفسه:

»إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. وهذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ.

وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللهِ، وقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ)، فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِهِ فَنَحْنُ أَوْلاهم به «. نهج البلاغة: الخطبة ١٢٣.

هنا يتبادر للذهن تساؤل .فبحسب اعتقاد الشيعة وبرأي الإمام نفسه (نهج البلاغة: آخر الخطبة 2) تكون الإمامة ويكون الحكم في الإسلام أمراً انتصابياً وبموجب النص. فلماذا خضع الإمام للتحكيم، ومن ثمّ راح يدافع عنه بشدة؟

إنّ الجواب على هذا التساؤل يتبين واضحاً في هذا الّذي سبق من خطبة الإمام(عليه السلام): فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به، وإذا حكم بسنّة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فنحن أولاهم به.

الفرق الإسلامية وتأثر بعضها في بعض

تنفعنا دراسة أحوال الخوارج في معرفة مدى الأثر الّذي خلفوه في التاريخ الإسلامي من حيث السياسة والعقيدة والذوق والفقه وسائر الأحكام.

إنّ مختلف الفرق والنحل ـ وإن تكن منفصلة عن بعض من حيث الشعارات قد تتأثر أحياناً بروح المذاهب الأُخرى وتحل فيها روح مذهب من المذاهب، فتقبل الفرقة روح ذلك المذهب ومعناه، على الرغم من أ نّها تخالفه، فالسرقة في طبيعة الإنسان.

فقد نجد مثلا رجلا سنّي المذهب شيعياً في روحه ومفاهيمه. وقد نجد العكس أيضاً. فيكون الشخص بطبيعته متديناً وظاهرياً ولكنه صوفي في روحه، وقد يكون العكس. فمن الممكن أن يكون بعض

الناس من الشيعة في الشعار والانتحال، ومن الخوارج في الروح والعمل. وهذا يصدق على الأفراد كما يصدق على الأُمم والملل.

إذا تجاوزت النحل وتعاشرت تبادلت العقائد والأذواق، وإن تباعدت في شعاراتها. من ذلك مثلا سريان عادة (التطبير) ـ أي ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات ـ وضرب الطبول والنفخ في الأبواق من المسيحيين الأرثوذوكس القفقازيين إلى ايران وانتشرت فيها انتشار النار في الهشيم، بسبب استعداد النفوس والروحيات لتقبلها.

لذلك ينبغي أن نتعرف على روحيات مختلف الفرق. فقد تكون فرقة وليدة حسن الظن، فيلزم أن تتبع معهم قول القائل «ضع فعل أخيك على أحسنه» كأهل السنّة الّذين يحسنون الظن بالأشخاص، فهم لابدّ أن ينتقدوا فرقة وليدة منظور خاص وتولي اهتماماً كبيراً للأُصول الإسلامية، لا بالأفراد أو الأشخاص، كالشيعة في الصدر الأوّل من الإسلام. وثمة فرقة تعنى بالباطن والتأويل الباطني كالمتصوفة، وفرقة أُخرى وليدة التعصب والجمود الفكري كالخوارج.

فإذا عرفنا روحية كلّ فرقة وحوادثها التاريخية الأولى، كان حكمنا أصدق في ماهية العقائد والأفكار الّتي تسربت من فرقة إلى أُخرى خلال القرون، وعلى الرغم من الاحتفاظ بشعاراتها الخاصة، تقبلت روحية الفرق الأُخرى.

إنّ العقائد والأفكار أشبه ـ في هذا الباب ـ باللغات الّتي تسري من لغة إلى أُخرى بغير أن يتعمّد أحد ذلك، كالّذي حصل بعد أن فتح العرب المسلمون ايران، فدخلت كلمات فارسية إلى اللغة العربية، كذلك اللغة التركية على عهد المتوكل والأتراك السلاجقة والمغول وغيرها من اللغات. وهكذا كان تنافذ الأذواق والميول.

إنّ أُسلوب تفكير الخوارج وعقليتهم ـ الجمود الفكري وفصلهم التعقل عن التدين ـ اندس في المجتمع الإسلامي بمختلف الصور على امتداد تاريخ الإسلام. وعلى الرغم من أنّ الفرق الأُخرى كانت تعتقد أ نّها تخالف الخوارج، إلاّ أننا نجد أنّ روحية هؤلاء قد وضعت بصمتها على طراز تفكيرهم، وما هذا سوى الّذي قلناه عن طبيعة اللصوصية في الإنسان والّتي ساعد على تفشيها التجاور والمخالطة.

لقد كان من سلوك المتأثرين بالخوارج أ نّهم حملوا شعار مناوءة كلّ شيء جديد وما زالوا كذلك .بل

إنّهم يصبغون وسائل الحياة المادية والأشكال الظاهرية ـ الّتي قلنا أ نّها لا قدسية لها في الإسلام ـ بصبغة قدسية، ويعتبرون الاستفادة من كلّ جديد كفراً وزندقة.

إننا نعثر بين المدارس الفكرية والعقائدية والعلمية والإسلامية والفقهية على مدارس هي وليدة الروح القائلة بفصل التعقل عن التدين، وهي مدارس يتجلى فيها فكر الخوارج بكلّ وضوح، فتطرد كلّ فكرة عن اعتماد العقل للكشف عن الحقائق ووضع القوانين الفرعية، وتقول: إنّ اتباع هذا الأسلوب بدعة وخروج عن الدين، مع أنّ القرآن نفسه يحث الإنسان في كثير من آياته على التعقل ويرى في التبصر سنداً للدعوة الإلهية.

إنّ المعتزلة الّذين ظهروا في أوائل القرن الثاني الهجري، نشأوا على أثر البحث والتعمق في تفسير معنى الكفر والإيمان، وهل أن ارتكاب الكبيرة يوجب الكفر أم لا. وكان ظهورهم شديد الارتباط بظهور الخوارج من قبل. كان المعتزلة جماعة تريد أن تفكر بحرية وإيجاد حياة عقلية. وعلى الرغم من أ نّهم كانوا يفتقرون إلى المبادىء العملية وأُصولها، فإنّهم أخضعوا المسائل الإسلامية إلى قدر من الحرية في الدرس والتمحيص، فراحوا يفندون بعض الأحاديث، ولا يقبلون إلاّ الآراء والنظريات الّتي تحققوا منها واجتهدوا فيها.

لقد واجه هؤلاء منذ البداية المعارضة والمقاومة من لدن أهل الحديث ومتبعي الظاهر الّذين كانوا يرون ظاهر الحديث هو المعول عليه، بغض النظر عن معنى الحديث والقرآن وروحهما، ولم يكونوا يعترفون بآية قيمة لحكم العقل الصريح، بل كل القيمة الّتي كانوا يقولون بها للعقل إنّما ينحصر في قيمته لتوكيد الظاهر.

خلال قرن ونصف من حياة مدرسة المعتزلة العقلية كانوا ف ي اسار تذبذبات عجيبة، إلى أن ظهر الأشاعرة الّذين أنكروا كلياً قيمة الأفكار العقلية المحضة والمقولات الفلسفية الخالصة. قالوا: إنّ من المفروض على المسلمين أن يتعبدوا على وفق ما جاءهم في ظاهر الأحاديث المنقولة، بغير أن يتعمقوا في التفكير في المعاني أو تدبرها، وكل تساؤل وأخذ ورد بدعة.

كان الإمام أحمد بن حنبل، أحد أئمة أهل السنّة الأربعة، يخالف أسلوب تفكير المعتزلة أشد المخالفة، بحيث أ نّه سجن وجلد من جراء ذلك، ولكنه لم ينثن عن مخالفته لهم.

وفي النهاية انتصر الأشاعرة وطوي بساط التفكير العقلي، وكان هذا الانتصار ضربة شديدة وجهت

إلى الحياة العقلية في الإسلام.

كان الأشاعرة يعتبرون المعتزلة من أصحاب البدع. يقول أحد شعرائهم بعد انتصارهم على المعتزلة:

ذهبت دولة أصحاب البدع *** ووهى حبلهم ثمّ انقطع

وتداعى بانصراف جمعهم *** حزب إبليس الّذي كان جمع

هل لهم يا قوم في بدعتهم ***من فقيه أو إمام يتبع؟

»)المعتزلة» زهري جار الله، ص ١٨٥(

والأخباريون أيضاً، وهم من أصحاب مدرسة فقهية شيعية بلغوا أوج ازدهارهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، كانوا قريبين من الظاهريين وأهل الحديث من أهل السنّة، ومن حيث السلوك الفقهي فكلتا المدرستين تسلكان سلوكاً واحداً، وإنّما يقتصر اختلافهما على الأحاديث الّتي يجب أن تتبع، فكلتاهما تدينان بانفصال التعقل عن التدين.

لقد عطل الأخباريون عمل العقل تعطيلا تاماً، واسقطوا الإدراك العقلي من كلّ قيمة في استخراج الأحكام الإسلامية من النصوص، واعتبروا اتباع العقل حراماً، وهاجموا في مؤلفاتهم الأُصوليين ـ وهم أصحاب المدرسة الفقهية الشيعية الأُخرى ـ هجوماً شديداً، وقالوا: إنّ الحجة هي الكتاب والسنّة فقط، وبديهي أ نّهم كانوا يعتمدون الكتاب عن طريق التفسير في السنّة والحديث، فهم في الحقيقة قد أسقطوا القرآن من كونه حجة، مكتفين باتباع ظاهر الحديث.

إننا لسنا الأب بصدد بحث أساليب الفكر الإسلامي وتتبع المدارس الّتي تتبع الخوارج في الفصل بين التعقل والتدين، لأ نّه بحث واسع متشعب. وإنّما كلّ ما نرمي إليه هنا هو الإشارة إلى تأثير الفرق بعضها في بعض، وتبيان أنّ مذهب الخوارج الّذي لم يدم طويلا قد بقيت بصماته خلال القرون والعصور الإسلامية حتّى الوقت الحاضر الّذي نرى فيه عدداً من الكتّاب والمفكرين المعاصرين في دنيا الإسلام يتبنون أسلوب تفكيرهم بعد تحديثه وربطه بالفلسفة الحسية الحديثة.

(15)الحجرات: ٩.

(16)نهج البلاغة: الخطبة 147.

(17)نهج البلاغة: الرسالة 27.

(18)لهذا نجد على امتداد التاريخ الإسلامي أ نّه كلما قام مصلح يعمل لإصلاح حالة الناس

الاجتماعية والدينية، معرضاً منافع المستغلين والظالمين للخطر .بادر أولئك إلى ارتداء لبوس التقدس والتقوى والتدين.

إنّ المأمون العباسي المعروف بمجونه وإسرافه بين رجال السلطة في التاريخ، عندما يرى أنّ العلويين قد نهضوا، يرتدي جبة مرقعة ويحضر الاجتماعات بها، بحيث أنّ أبا حنيفة الإسكافي الّذي لم يصله من المأمون دينار ولا درهم، يثني عليه ويمتدحه على عمله.

وقد التمس آخرون ـ كلٌّ بشكل من الأشكال ـ سياسة (رفع المصاحف) المخربة، فأفسدوا كلّ الأتعاب والتضحيات وخنقوا الانتفاضات في مهدها. وما هذا سوى جهل الناس وضلالهم لأ نّهم لم يستطيعوا التمييز بين الشعارات والحقائق، وبهذا أغلقوا على أنفسهم أبواب النهضة والإصلاح، ثمّ استيقظوا بعد أن انهارت المقدمات ولم يكن بد من السير في الطريق من أوله.

إنّ من بين الأُمور العظيمة الّتي نتعلمها من سيرة عليّ(عليه السلام) هو أنّ نضالا من هذا القبيل لا يختص بجماعة دون أُخرى، بل حيثما كان المسلمون وأُولئك الّذين يتزيون بزي الدين، كان هؤلاء وسيلة نفوذ الأجانب وأداء تحقيق أهداف الاستعمار والمستعمرين، ولضمان مصالحهم يتترسون بهؤلاء ويتحصنون بهم، بحيث أنّ النضال ضد المستعمرين غير ممكن إلاّ بالقضاء على تلك التروس والحصون. فيجب أوّلا مكافحة تلك التروس والقضاء عليها لإزالة العقبات من طريق الهجوم على قلب العدو.

ولعل إثارة معاوية الخوارج للإفساد والتخريب كانت نافذة، وعلى ذلك فإنّ معاوية، أو في الأقل، أمثال أشعث بن قيس من العناصر المخربة والمشاغبة، قد تترست منذ ذلك اليوم ـ أيضاً ـ بالخوارج.

إنّ تاريخ الخوارج يعلمنا أ نّه في كلّ نهضة يجب في البداية القضاء على التروس والحصون ومحاربة الحماقات، كما فعل عليّ(عليه السلام) بعد التحكيم، إذ بادر إلى محاربة الخوارج أوّلا، بقصد مواجهة معاوية بعد ذلك.